سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

رحلة إلى عمان

تأليف
وندل فيليبس

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

رحلة إلى عمان

تأليف

ويندل فيلبس

ترجمة

محمد أمين عبد الله

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

« ان الآراء والمعلومات الواردة فى هذا الكتاب هى على مسئولية المؤلف ولا تعبر بحال من الأحوال عن آراء حكومة سلطنة عمان »

الفصل الأول

الجبل الأخضر ومسقط

« الطيران الى عمان — الجبل الأخضر — فى مسقط مع جلالة السلطان — جـلالة السلطان وعائلته الكريمة »

« ان وجود مثل هذه الدولة العربية كدولة عظيمة مكتملة البنيان فوق هذه الصحراء حيث تصعب المعيشة على الانسان ، هو أوضح مثال للذكاء والفطنة ، فهذه الصحراء النادرة الماء ، بأرضها الفقيرة المملحة المتميزة بلا ثمر • لهى أكثر من صحراء » •

« سير جون مانديفيل »

مازال بامكاننا رؤية القطاع الجنوبى المترامى الأطراف ، والشمس أكثر حمرة ، ثم هاهى ذى وقد تحولت الى اللون الذهبى ، ثم طلت من ياقوت البحر الأزرق •

حدث ذلك فى يوم من أيام رحلتنا ، عندما بدأنا السير على ذلك الممر الخشـــن ، يوم الثلاثاء ٢ ينـــاير ١٩٥٨ ، وفى وقتهـــا كانت طائرتنـــا (الداكوتا) تقلع من الممر الأرضى للجزء الداخلى لشجيرات جوز الهند فى صلالة ، وهى تمثل ثلثى الطريق الذى قطعناه فى رحلتنا من عدن لمسقط •

وبعد عبور جبال القراء طرنا فى الشمال الشرقى ، لمدة ثلاث الساعات التالية ، فوق الرمال الصفراء والحمراء الخالية ، والعديمة الملامح ، ثم فجأة تحول اللون الأحمر الى أزرق داكن ، حين مررنا فوق ســـهل رملى

ملىء بالحصى ، ومع ظهور الجبال العالية البعيدة ظهر قطيع من الماشية ، وعلى اليمين بدت الواحات الجميلة الخضراء ، ذات المنازل الرمادية الصغيرة ، التى تجمعت كعناقيد حول الأحواض المائية المتلألئة ، التى كانت تسطع مثل المرايا ٠

وخلف هذا كان هناك على اليمين وعلى بعد ١٫٩٠٠ قدم بلدة صغيرة تجاه الجبال بجوار الوادى الفسيح ، هى نزوى ، وقد خرجت هذه البلدة بمعالمها الى الأضواء منذ شهور قليلة ، وذلك أثناء التمرد السقيم الذى حدث ضد النظام الشرعى القائم ٠

والى اليمين من نافذة الطائرة كان هناك جدار هائل من الحجارة ، يكاد يزاحم السماء بارتفاعه الشاهق ، حتى لقد أحسست وكأنه لمس جناح الطائرة ، وعلى الجانب الآخر كانت هناك قمة شاهقة للغاية ٠

وبينما كنا نستكشف الجبل الأخضر العظيم ٠٠ رأيناه مساحة هائلة من الأرض المقفرة العارية ، ذات الارتفاع الهائل (١٠٫٠٠٠ قدم) ، وهى بمثابة العمـود الفقرى والمركزى لعمـان ٠٠ والجبـل الأخضر العظيم ٠٠ أو الجبل ذو الرداء الأخضر ٠٠ بالفعل ، وبلا أية مبالغة ، ليس جبلا عاديا ، لأن الصخر الذى يتكون منه هذا الجبل له لون أخضر قاتم ، كالبرونز العتيق ، والجبل كتلة صخرية ذات عشب وأشواك ، تمتد فى أماكن متسعة متفرقة ، وعلى رأسه ترقد قمة ضخمة غير مستوية ، واضحة أمام العين ٠

ولقد كان الجانب المواجه لنا بصفة خاصة عمودى الشكل ، ويبدو الجناح الطرفى وكأنه سكين حادة ٠٠ أما الجانب الآخر فقد كان جدبا وقاحلا وقد جمعنا بعض الصور التى التقطناها ، وهى بمثابة « بانوراما » رائعة خيالية ، من الصخور والقمم ، قطعتها عصور جيولوجية منذ حقب بعيدة ، وهناك مساحات وعرة هائلة مليئة بالمقابر ، وتوجد شقوق عميقة غريبة الشكل ، تشبه الجيوب الضيقة العميقة ٠

وهناك الأودية الضيقة المليئة بالشلالات والمجارى ، وهناك الجدران المغطاه بالنباتات ، وهى كالعذراء التى يتدلى شعرها على الظهر ، وتروى هذه النباتات عن طريق أمطار الشتاء الغزيرة ، التى تختزن معظم السنة ، وهناك نوع من الزراعة الناجحة فى النصف الأسفل من الجبل ، حيث ينمو الثوم ، بينما ينمو الزيتون وشجر الأرز فى النصف الأعلى .

وهناك أساليب محكمة للرى الصناعى ، تقوم برى مساحات الأرض فى الأحراش الموجودة ، فى الأودية الصخرية الضيقة ، وهناك خزانات كبيرة لرى حدائق أشجار الفاكهة ، مثل المشمش ، والخوخ ، والرمان والتوت ، والموز ، والجوز ، والتين ، كما بين ب . أوتشرايلوى ١٨٣٦ ، ذلك العالم الفرنسى ، الذى لم ييأس من قطع هذه المنطقة على الأقدام ، وقد جمع حوالى مائتين وخمس وعشرين بصيلة نباتية ، ثم عاد بعد ذلك الى مسقط عن طريق وادى سمايل .. وقد جاء المستكشفون الانجليز الأوائل أمثال ج . رديلستد و هـ . هـ وايت لوك قبل ذلك بعام الى قلب عمان ، وسجلوا دهشتهم واعجابهم ، وتساءلوا هل هذه هى المدينة العربية التى كنا نحسبها مجرد صحراء .

وتمتد مزارع الحبوب وقصب السكر الخضراء ، وتتدفق أمامنا جداول مائية ، تعبر عن الوجه السعيد القنوع للفلاحين ، الأمر الذى يساعد على استكمال الصورة الجميلة للمجتمع على الجبل الأخضر ، فالسكان مرتبطون بالأرض الى حد كبير ، وهناك الولاء والطاعة للعصبة وللأسرة .. وتوجد اثنتا عشرة مجموعة قوية لقبيلة بنى ريام التى تسكن على سطح الجبل ، ولكل مجموعة شيخها ، وهناك أربع قرى رئيسية ، ومجموعتان من الرحالة يتجولون على الجبل بوجوههم القوية ، على حمير الجبل ، ودواب رائعة قادرة على حمل أية أثقال ، وهم يتفاخرون بحياتهم هذه .

ولقد عرف هؤلاء القوم مسالك الجبل والطريق منذ ساعة ميلادهم ،

ومن المعتقد أن العدد الاجمالى لسكان الجبل يصل الى حوالى ١٦٠٠ نسمة ، والقرى مبنية بناء قويا من الطين والحجر • والأسقف شديدة الصلابة مصنوعة من الصلصال الأحمر ، لتحميهم من متاعب الشتاء ، والأبواب مصنوعة من الجوز وخشب السندال ، تتميز برائحتها الجميلة ، ويتم تزيين أبواب الطرقات منها •

وبينما كنا فى الطائرة كانت الأودية تتسم بشريط صغير أخضر ، يخرج فى أشكال مختلفة مع كل منحنى للمجرى الكبير بمساكن صغيرة ، تنتشر هنا وهناك ، وقد طلبت من قائد الطائرة أن يدور مرة أخرى ، لكى يغطى الجبل الأخضر مرة ثانية ، حتى يتسنى أن نكمل تصوير الفيلم •

وقد كان بيل تورى رفيقى ، الذى يقوم بالتصوير •• وقد صحبنى كثيرا فى رحلاتى الاستكشافية العربية والافريقية • وقد قام قبل ذلك بتصوير الهجوم اليابانى على بيرل هاربر ، ومع أن الجو كان باردا فقد كان تورى مبللا بعرقه نتيجة صعوبة حمل الكاميرا (م م ١٦) وقد كان يتدلى من الكابينة فى جهد شديد لضبط الزوايا •

وقد قام الطيار بدورة كبيرة ثم انخفض بالطائرة مرة ثانية ، الى قلب الجبل ، متأرجحا من مكان الى آخر ، هابطا الى الكهوف والمنخفضات السحيقة ، التى رآها الفلكيون من قبل على الطبيعة •

حقا لقد كانت تجربة ممتعة ، أن نشاهد ظلا لطائرتنا على وجه الصخور القوية ، وهى تبتعد مرة للأمام ، ثم تتسلق مرة أخرى فوق بعض القمم أمامنا مباشرة ، وقد أحدث دورانها صورا تشبه لعب الضوء والظل ، وتغير الأخضر الى الرمادى ، والأصفر الذهبى ، والأودية العميقة المظلة ، وأشعة الشمس الناعمة على الأطراف المرتفعة •

لقد خلق كل هذا نوعا من الأحاسيس الجميلة ، يصعب على

الانسان نسيانها ، فالطيران فوق الجبل الأخضر فى عمان كان بحق أعظم تجربة جبـلية .

وبعـد التزود بالوقود من الغرب .. وجدنا أن الجبـل الأخضر العظيم ينحدر فجائيا الى الشرق . كما لاحظ الكولونيل س . ب ميل من قبل عام ١٨٧٦ ، وان الانحدار المفاجىء للأطراف الشمالية والجنوبية يجعـل الوصـول الى هذه الكتـلة الصخرية صعبا ، اذا استخدمنا السهول ، الا عن طريق الأودية الضيقة .

وبالعودة الى القرن العاشر نجد أن الفرس قد استطاعوا غزو هذه الأطراف ، رغم صعوبة الوصول اليها ، ورغم أن العمانيين قاتلوا بشجاعة ، وقد كانوا يلقون الحجارة الضخمة خلال تراجعهم ، خطـوة خطوة ، وهم يدافعون عن قلعتهم الأخيرة .

وللجبل الأخضر مظاهر عديدة يمكن أن تراها ، وأنت فى البحر على بعد مئات الأميال .

وأثناء طيراننا لأقصى الشرق كنا نرى منازل ومساحات من الأرض قليلة الزراعة ، وعلى البعد ظهرت أشجار النخيل الممتدة على الشاطىء ، ثم ذهب بنا قائد الطائرة لأسفل ، حيث مسقط ومطرح بأشجارها الخضراء والكتل السوداء الخاصة بالساحل الصخرى ، والآثار البرتغالية القديمة ، والمبانى البيضاء اللامعة .

وفى طريقنا من مطرح كان أول شىء عرفته ، هو سعادتى الشديدة بمعانقة الرئيس الصومالى جاما .. والذى قد صاح بالعربية « الشكر لله » وقد حياه البروفيسور الكسندر (الكسندر م هانيمان) ، وقد تكرم السلطان بارسال الأستاذ محمد أمين لكى يقوم باجراء مراسم الاستقبال ، وبصحبته مستشار السلطان للشئون الدفاعية .

وقد قادنا مرشد السلطان بأقصى سرعة ممكنة تاركين وراءنا القرى الصغيرة والجمال والأصدقاء ، وذلك عبر الطريق من المطار بحافة شاطئ البحر بمسافة كبيرة ، ثم الى الداخل حيث مكتب الجمارك ، وبعد ثلاثة أميال خفقت قلوبنا لمنظر مسقط الرائع ، فهى بقعة على ساحة مسرح قديم على ارتفاع (٤٠ — ٩٠ قدما) ثم الميناء الذى نحت فى الصخر .

وقد قال اللورد كورزون : ان هذا الميناء هو أروع صورة مجسدة فى الشرق ، وانه بالتأكيد هو أحسن وأعمق ميناء فى كل الجزيرة العربية .

وقد ذكر ويلستد ذات مرة : انه لا يوجد فى العالم كله ما يماثل هذا المنظر الجميل والرومانسى لمسقط ، وعلى الجانبين كانت هناك صخور شديدة الصلابة على ارتفاع ٣٥٠ قدم ، تنتشر فى كل اتجاه ، وهنـاك المدينة البيضاء المطلة على الشرق والغرب بصخورها العمودية ، وعلى أعلى نقطة لهذه القمم العمودية توجد الأبراج ، بنوافذها ذات الأشكال المختلفة ، وقد تركها أبنـاء الامبراطورية القوية الفارسية والبرتغالية ، وتاركين أيضا أرضا بورا وصخورا سوداء . ويخيم الصمت والسـكون القاتل على هذه الجبال ، بصخورها العارية الخالية من النبات ، والتى تحرم مسقط من كل نسيم بارد أثناء الفصل الحار ، وتمص قسوة الحرارة أثناء اليوم ، لتخفضها بعد غروب الشمس . ولا توجد ظلال لهذه الجبال الشاسعة ، ومن حين لآخر تهب على مسقط فى ليالى الصيف رياح غربية ، تزحف من الجبال المرتفعة مما يرفع درجات الحرارة الى حد لا يطاق .

ومع ذلك فبمجرد دخولنا المدينة فى منتصف الشتاء كان الجو باردا الى حد ما ، وكنا محظوظين ، حيث ان مناخ المدينة كان أحسن حالا من أول مايو ١٨١٠ .

وقد كان مناخ مسقط هو الشئ الوحيد الذى يتميز بانطباع خاص لدى المسافرين فى الماضى .

فقد وصل ابن بطوطة مسقط القديمة سنة ١٣٤٧ م وقال عنهـا « انها بلدة صغيرة بها أسماك كثيرة » • وفى سنة ١٥٠٧ م قال عنهـا الفونسوى البكورك : انها مدينة كبيرة آهلة بالسكان ، وانهـا المركز الرئيسى لهرمز ، بينما اكتشف الرحـالة الايطالى بترو دى لافال عام ١٦٢٥ م أن مسقط بها كنيستان وبعض الأقليات الأجنبية •

وسجل « جون ستروز » أن هذه المدينة على كبرها وحجم سكانها فهى قليلة السكان بالنسبة للماضى ، وخاصة عندما استولى ملك الفرس عام ١٦٢٢ على هرمز ، وعندما كانت مركزا للبرتغاليين والعرب ، ففى القرن الثامن عشر كان الميناء مزدحما بالصوارى الكبيرة ، وكان مليئا بالتجار والقوارب الشراعية من البحر الأحمر وكراتشى ، وكانت القهوة سلعة هامة فى البصرة •

وفى عام ١٧٢١ أبحر « كابتن الكسندر هاميلتون » الى ميناء مسقط بمركب ، بحمولة تقدر بمائتى طن واثنى عشر مدفعا ، وذكر بعد ذلك أن مسقط قوية جدا بطبيعتها ، وغنية بفنها ، ولكن مبانيها متواضعة ، وأن سكانها طيبون ، يبغضون التفاخر ، والتبـاهى ، ومازال المبنى الذى بناه البرتغاليون يحمل بعض المعالم الحضارية ، وقد تحول الآن الى مقر يقيم فيه السلطان بصفة عامة ، شهرا كل عام ، ويتخذ السلطان مقرا للحكم بصفة عامة فى نزوى والرستاق ، اللتين تبعدان عن مسقط مسيرة أربعة أو خمسة أيام برا ، حيث يدير من هناك شئون الدولة •

ومن الأحداث الهامة التى شهدتها مسقط زيارة المستكشف الدانماركى « كارستون نبهور » عام ١٧٦٥ ، وهو أول عالم حقيقى يصف الجزيرة العربية ، وقد كتب واحدا من أعظم وأهم البحوث الوصفية عن عمان ، وفى هذه الحقبة ، أثناء حكم السيد أحمد بن سعيد لم يكن هناك مستوطنون أوربيون فى المدينـة ، وكانت حامية مسقط مسلحة بالسيوف والخناجر والبنادق ، وكان مرتب كل جندى أربع روبيات كل شهر •

وبعد عشر سنوات مكث « الكابتن جورج » بسفينته فى ميناء مسقط لمدة شهرين ، وكانت سفينته « سى هورس » مجهزة بعشرين مدفعا ، الى جانب مساعد القبطان « هوراشيون نيلسون » الذى أصبح فيما بعد بطلا لوادى النيل ، والطرف الأغر •

وفى الحروب النابليونية حاصر الأسطول الانجليزى الأسطول الفرنسى فى هذه الميناء ، بينما تسلل الأسطول اليابانى أثناء الحرب العالمية الثانية الى الداخل ، وضرب بالطوربيد سفينة تجارية نرويجية •

وليست هناك مصادر طبيعية فى مسقط • والسكون يحتضن القمم العالية للجبال ، ذات الصخور الصلبة ، رغم أن هناك ممرين الى الجنوب والغرب يقدمان مدخلا ملائما الدخول ، خلال هذه التحصينات الضيقة • وتعتبر مسقط وبلا جدال هى النافذة الرئيسية التى تطل منها عمان على العالم ، وهذه النافذة منفتحة للخارج ، وليس للداخل ، وليس هناك منفذ لاختراق هذه الأسوار الطبيعية •

وزيادة السكان تتجه الى مطرح ناحية الغرب ، أو سداب فى الجنوب ومنظر قرية الصيد فى سداب يدهشنا بحدائقها الغناء ، والقمم المختلفة التى تحيط بها ، وتطل برءوسها على البحر ، وهنا يوجد صهريجان فى الوادى الكبير يمدان مسقط بالماء ، وليس هناك شارع رئيسى ، اللهم الا بعض الأزقة الضيقة المؤدية الى نوع من التجمعات المركزية ، وفى الأماكن الجنوبية الغربية لهذا الجزء من المدينة يوجد سور كبير ذو خندق ، والبوابة الوحيدة المؤدية الى المدينة المحصنة حجمها كبير ، بدرجة كافية لمرور السيارات ، وهناك السور الغربى ، المعروف بالبوابة الكبيرة ، والذى أعيد ترميمه منذ سنوات قليلة ، بناء على طلب السلطان ، وهناك أماكن للجلوس فى ممر البوابة ، حيث تدور فيها الأحاديث التى لا تنقطع ، وحكايات الحراس والمواطنين ، وتغلق الأبواب كل ليلة بعد ثلاث ساعات من الغروب ، وتطلق ثلاث طلقات من المدفع لفتح الأبواب للسيارات

الخاصة بالسلطان ، أو المسئولين ، وبعد اغلاق البوابة الرئيسية يمكن للمشاة دخول المدينة ، خلال باب صغير ، فى احدى البوابات الكبيرة ، ولكن بتصريح ، ولابد من وجود كشافات مع المـارة عند الوصول الى مسقط التى تضم حوالى ستة آلاف نسمة •

وكنا نرى السيدات محجبات ، يعلقن حلقات فى أنوفهن للتحلى بها وللزينه ، ويقول ج • ويلستد : انه لاحظ طول النساء ، وانه شعر باكتمال فى شخصياتهن ، وانهن لا يفضلن البدانة ، وجاذبيتهن أكثر من كل نساء الجزيرة العربية •

ويذكر ج « س باكنجهام » عند زيارته لمسقط فى سبتمبر سنة ١٨١٦ انه بغض النظر عن عدد السكان ، الذى يقدر بحوالى عشرة آلاف فانه ليس هناك مسيحيون فى مسقط • وقال أيضا : انه وجد شعب مسقط أنظف وأكثر اعتناء فى الملبس ، وأكثر كياسة من كل العرب الذين رآهم فى حياته ، وأنه قد أعجبه مظهرهم ، وشعر فيهم بالثقـــة والعزيمـــة القوية والاحـــترام •

ويقال ان لمسقط قدم فى الجزيرة العربية ، وقدم فى الهند ، حيث كان الهنود يسيطرون على السوق ، ومعظمهم من بومباى ، وبعد مجىء فريق التجار الهنود كانت العملة الهندية هى وسيلة التبادل ، والعمال والحمالون هناك من أصل سنغالى ، أو ايرانى ، بينما يكون العرب ، الذين يمثلون نصف السكان الطبقة الارستقراطية فى المدينة ، وهم يرتدون ملابس على النمط الفارسى القديم •

وأصحاب الديانات غير المسلمين لهم حريتهم فى عبادتهم ، بلا تدخل ، وكان للارتباط مع زنجبار وشرقى افريقية تأثير كبير على اللهجة المحلية ، وربما يتحدث الشخص مثل رحالة الصحراء ، ويستخدم كلمات معينة وعبارات وجمل مركبة ، تقترب من اللغة القديمة ، بينما يستخدم الآخر اصطلاحات مبســطة ، وينطق لهجات قريبة من لهجات اللغة الفارسية

وأبنـــاء الخليج ، وبصـــفة عامة فان لغتهم مليئـــة باللكنة الانجليزية ، والهندوستانية ولها ميزة تنتمى الى مسقط وحدها •

والفقراء فى مسقط ليســـوا سعداء بفقرهم ، وهم يرفضـــون أن يتحملوا الفاقة ثانية ، ويجرى فى دمهم الأساس العقلى الدينى الراسخ الجميل للاسلام ، وهو أن الحياة الدنيا قصيرة ، ويجب أن ينظر الانسان الى ثواب الآخرة ، وفقرهم ليس سببه تخاذلهم أو ضعفهم ، ولكن فرص العمل قليلة ، لذا فليس من الدهشة أن يحاول الشباب المسقطى ذو الطموح الرحيل ، رغم أن هذه الرغبة لم توجد الا فى السنوات القليلة الماضية ، وتؤثر الثقافة الاسلامية ، وخبرة الحياة عليهم كثيرا ، بحيث لا يمكن للطفل أن ينساها ، وفكرة الملكية الخاصة ينظـــر اليهـــا باهتمام وأفضلية فى مســـقط •

وكل المنازل تبنى عادة من الطين أو الحجر والخرسانة ، وربما يمتلكها الســـكان المحليون أو الأجانب ، وتؤول الأرض ، التى لا تثبت لها ملكية للدولة ، فتكون تحت اشراف الحكومة ، وكل المبانى خاضعة لقـــانون الاسكان فى مسقط ومطرح •

ومن الضرورى الآن أن نتوقف لحظة لنتحدث عن سبب وهدف وحكاية وجودى فى مسقط •

ففى عام ١٩٥١ نظمت رحلة استكشاف عربية ، وهى رحلتى الثالثة للكشف عن حفريات تمثال القمر فى المملكة المحظورة « اليمن » ، وتمثال الإله « ايليوكا » فى العاصمة القديمة لمملكة سبأ •

وفى ١٢ فبراير ١٩٥٢ أجبرتنا السلطات الرسمية فى اليمن المضيفة على ترك كل معداتنا ، والهرب من أجل انقـــاذ أرواحنا ، وقمت أنا بقيادة المجموعة فى الكثبان الرملية الناعمة ، وأصبت بخيبة أمل كبيرة ، ليس فقط

من أجل الحفريات التى لم أجدها ، ولكن من أجل المعدات أيضـــا ، والوحدات الطبية ، والآت التصوير •

ومن قبيل الصدفة — وليس الترتيب — أن وصلنا الى عمان ، ومن حسن حظى انى تقابلت مع جلالة السلطان المثقف عام ١٩٤٩ عندما عبرت جنـــوب افريقية ، واستقبلنى فى مسقط ، ودعانى أن أقـــوم برحلتى الاستكشافية الى عمان ، للحشف والتنقيب ، وشرحت له ما حدث فى اليمن ، وخسائرنا هناك ، وأننا لن نستطيع عمل الكثير ، واذا وافق على مدنا بالمعونة فاننا سوف ننجز عملا كبيرا • وقد قدر جلالته ظروفنا ومتاعبنا فى اليمن ، ورحب بنـــا ، وتعهد باعطائنا كل ما يلزمنا فى برنامجنا •

وبعد بضعة شهور أدركنا عطف وكرم السلطان ، فقد أمدنا بالآلاف من الدولارات التى أخذناها ، وأعطاها لنا السلطان ، وقد اعتبرها مساهمة فى البحث ، وكان هذا الكرم أثمن بكثير من الاكتشاف الفعلى للمدينـــة المفقودة •

ومن هنا جاءت رحلتى الرابعة ، والتى أتناولها هنا •

وتقدمنا « البروفيسور الكسندر هانيمان » من جامعة « أندروز » والذى كان هو الملاح المحنك فى رحلاتنا الأولى ، تقدمنا ، وشيد مركزنا فى منزل مبنى من الحجر ، والطين والرخام ، أعطوه لنا — بكل عطف — من تاجر هندى • تقدمنا البروفيسور كقائد لنا ، وكأستاذ فى اللغـــات القديمة فى أقدم جامعة فى « أسكتلندا » ، فهو متخصص فى العبرية ، والعربية ، والأرمنية ، والفينيقية ، وكل ما كان يهمنا هنا هو معرفته وفهمه للنقوش فى شبه الجزيرة العربية •

وكانت المجموعة كلها فى هذا الموقع الجديد من المحاربين القـــدماء باستثناء « ريا كلفلاندو » التى تبلغ من العمر ٢٨ عاما ، وكانت تدرس

الحصـــول على الدبلوم ، تحت اشراف عالم الطبيعة « وليم • ف • البريت » فى جامعة « جون هوبكنز » ، وكانت « كلفلاند » قد بدأت فى دراســـة علم الآثار ، تحت اشراف « البروفيسور مادلين كاكسياتين » أثناء عملها فى « جاركوا » وكنا لانزال ننتظر « الدكتور لويس روس » فى صحار ، وقد كان فى طريقه من البحرين •

وكان السلطان يؤيد وبحماس رحلتنا ، وقد ساهم جلالته ، ليس فقط بالنقود التى كنا نحتاج اليها ، ولكن الاكثر أهمية هو الشيخ شاكر ابن حماد ، الذى اصطحبنى فى زيارتى لنتعرف على صحار ، منذ ثلاثة أشهر ، كرئيس للارشاد •• وقد اختيرت صحار كهدف لنـــا ، لمـــا ذكره الجغرافيون العرب القدماء عنها ، من أوصاف براقة للآثار الكبيرة بها ، من بقايا المعارك أو الاحتلال • وقد رافقنى فى رحلتى الى مسقط أمى وأختى مادلين •

وقد علمت أن جلالة السلطان ولد عام ١٩١٠ قبل سنوات ثلاث من تنصيب والده ، تيمور بن فيصل ، لشئون السلطنة ، وبتنازل والده له عام ١٩٣٢ أصبح السلطان سعيد هو سلطان عمان • وجلالته يجيد التحدث والقراءة والكتابة بالانجليزية باتقان •• وهو ذو مزاج معتدل بهى الطلعة والمنظـــر ، ذو طبيعة أصيلة وأدب جم ، كريم مـــع زواره وضيوفه ، وهو مسلم ، تقى ، مخلص ، وغير متعصب ، ومع ذلك فهـــو عربى مكتمل •

وكان للسلطان تأثير كبير على سياسة بريطانيا العظمى وأمريكا ، وهو يستمع دائما الى الاذاعة البريطانية ، ويطالع المجلات الأمريكية ، وهو رجل ذو تقاليد محافظة ، لا يقتنى السيارات الفاخرة أو الطائرات أو اليخوت ، ولكنه يتمتع بالحياة البسيطة ، ويفضل اجتياز الصحراء بعربة جيب ، ويخلو أحيانا الى نفســـه ، وهو رياضى حقيقى ، ورام ممتاز ، ومصور بارع ، ذو ذوق رفيع ، وله زوجتان ، أنجبت الثانية

ثلاثة أطفال ، والولد الوحيد حسن المظهر ، وذكى للغاية ، وهو السلطان قابوس ، وقد تخرج من كلية « سانت هيرست » الملكية فى سبتمبر ١٩٦٢ ٠

وعندما كان قابوس غلاما اعتاد والده السلطان أن يغرس فيه مبادئه وأهمها ، أنه مثل سائر العمانيين ، وأنه يجب أن يعمل ، وأن يعنى بتأهيل نفسه على المبادىء القويمة حتى يكون له مركزه الخاص ٠

وقام السلطان بالترحيب بنا بحفاوة ، ثم اطلعنا على حوض فضى حفرت عليه نقوش جميلة ، كان قد أرسل هدية من روزفلت عام ١٩٠٧ لجده ، السيد فيصل بن تركى ، الذى كان على العرش وقتها ، وكان الحوض مذيلا « من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الى عظمة سلطان عمان » ثم قادنا السلطان الى مقصورته الخاصة لرؤية الميناء ، الذى تحيط به حصون قلعتى الجلالى والميرانى ٠٠ وقد شيد قصر السلطان على قمة صخرية ترتفع حوالى ١٥٠٠ قدم عن سطح الماء ، وذكر جلالته ، أن أحد القواد البرتغاليين الأوائل ، ويدعى « مورد » قد شيده ، وبمرور الوقت فان الحصن الغربى والأكثر ارتفاعا بقليل ، وأكثر تعقيدا فى التصميم قد تم تعديله بمهارة كبيرة بعد استخدام المساحة الفسيحة المتاحة بجواره ، وهو يسمى الميرانى ، فى حين أن القائد الفارسى ، المدعو جلال ، قد شيد هو الآخر حصنا ، ولهذا سمى حصن الجلالى ، وهو يمثل من الشرق قمة عالية من الصخر ، ويقف شامخا فخورا ٠

وقلعة الجلالى يمتد تاريخها من سنة ١٥٨٩ ، وهى أصغر حجما ، ومع أنها أكثر مساحة من الأخرى الا أن الفتحات التى كانت تطل منها المدافع مازالت موجودة بها ٠٠ والقلعة ذات برج دائرى فى كل طرف ، هو الآن يستخدم كسجن ، وبه خمسة وثمانون سجينا ، وهم من المنشقين ومثيرى المتاعب فى الداخل ، ورغم أنه فى اليمين يتم قطع رءوس

مثل هؤلاء بسهولة شديدة ، بعـد صـدور قرار ملكى بذلك ، الا أن السلطان يعاملهم معاملة طيبة ، ويرسل طبيبه الخاص اليهم ، مرتين أسبوعيا ، وعندما يجد الطبيب أن حالة أحدهم تستحق الانتقال يرسله الى المستشفى •

والمدخل الوحيد لقلعة الجلالى هو شاطىء الميناء بدرجاته الصخرية المنحوتة فى الصخر الصلب •

ومما يروى عن هذا الحصن ، أنه ذات مرة هرب سجين منه بإدلاء حبل من البطاطين ، ونزل الى المحيط ، ولكنه لم يجد مكانا ينزل اليـه فانتحر •

وفى ١٤ فبراير سنة ١٩٦٣ • حدث أول هروب جماعى يعرف فى تاريخ السلطنة من سجن الجلالى ، وقد كان العدد المعتاد للمسـاجين لا يتعدى ١٠ ــ ١٥ فى كل حجرة •• ولكن كان هناك أربعـة وأربعـون سجينا ما بين قتلة الى تجار أسلحة ، كلهم فى حجرة واحدة ، لوجود اصلاحات فى السجن فى ذلك الوقت ، ولم تكن أيدى المساجين مقيدة بل أقدامهم فقط ، فقام بعضهم بفتح السلاسل الملتفة حول أقدامهم ، وبدأ التخطيط ببراعة للهرب ، ولم تكن هناك أقفال مفتوحة ، وقد فك المساجين عددا من المدافع ، واستخدموها فى الحفر ، وأثناء النهار كانوا يغطون الفتحة التى اتسعت بدس الملابس القديمة فيها •• ثم ربطوا بعضهم ببعض ، ونزلوا على الصخور وكانت حادة تحت أقدامهم العارية ، لذلك فقد امتلأت الأرض بدمائهم ، وتم القبض عليهم جميعا فى حوالى ٢٤ ساعة الا واحدا ، تم القبض عليه بعد ثلاثين يوما •

والقصة التالية للبرتغاليين القدامى لازالت ترويها البوابة الداخلية لقلعة الميرانى ، وقد أعطانى ، « البروفيسور روبرت سيرجنت » تفاصيل أكثر عن تلك القلعة ، والنقوش ، فقلعة الميرانى كما تسمى الآن كانت معروفة للبرتغاليين بقلعة (كابتن) وتم بناء الحصن فيها عام ١٥٥٢ ،

وكان تجسيدا الهدف الذى أبحر من أجله البرتغال ، وعندما هوجمت المدينة بقوات البرابرة سلب الأتراك الحصن ، وتركوه خاويا ، بعد أن أغار على بك سنة ١٥٨١ م ونهب مسقط ، وأدركت الحكومة فى لشبونة أن الاجراءات يجب أن تتخذ لتقوية الدفاع والأمن ، وذلك قبل عـام ١٥٨٦ م عندما صمم نائب الملك على بنائه ، ويبدو أن « دوم ديوارت » هو الذى وضع الخطط ، ثم خضعت البرتغال لحكم أسبانيا « فيليب الثانى » ولاتزال النقوش تحمل اسمه ، ثم أعيد بناء الحصن •

وهناك خط لاتينى على النافذة الخارجية فى الجـدار الجنـوبى الغربى فى الكنيسة الدائرية الواقعة على قمة الميرانى ، وعلى الحوش الأسفل للحائط الشرقى هناك كتابات برتغالية ، والجدران الرمادية للجلالى والميرانى تطل على أحداث تاريخية امتدت أربعة قرون ، ولها منزلة عظيمة فى نفوس سكان مسقط ، وان الأسرة الحاكمة تعيش فى ظلاله ، بعـد أن أصبحت مسقط هى العاصمة •

الفصل الثانى

الدين فى عمـان

الآثار الاسلامية ـ المساجد فى عمان ـ البعثات المسيحية ـ احترام المسيحيين

« ليس هناك خطـأ أكبر من خطأ بنـاء حقائق عامة على أساس من المعارف الناقصة أو الضعيفة ، ومن لا يعيش مع العرب لا يمكنه أن يلم الالمام التام بأحوال وطباع ملايين المسلمين فى آسيا وافريقيا ، ولا يمكنه أن يقـول شيئا صحيحا ، ومؤكدا عن المجتمعات المتفرقة هنـا وهناك ، فلابد من التعايش كى يقـوم أحدهم بالتعليق ، أو الحديث عن الاسلام والمسلمين » ..

« ألفريد غليوم »

ان المجتمع العمانى مجتمع مسلم ، يعتقد الفرد فيه أنه من الإثم أن يشير الى المستقبل دون أن يذكر عبارة « ان شاء الله » .. وهذا دليل على أن الزمن لم يستطع التأثير على القيم الموجودة .

والمسلم فخور ، معتز بنفسه ، مستقل بذاته ، ذو نفس قانعـة راضية ، هادىء الطبع لا تثيره حتى الأحداث ولو كانت من أعدائه ، وأهم ما يشـغل الغالبيـة من الناس هو « ماذا تأكل ؟ ماذا تشرب ؟ ماذا ترتدى ؟ » . ولم يحصل معظم الناس على قسـط وافر من التعليم ، ولكنهم يختلفون لحد كبير عن البدو ، فى تمتعهم بقدرة فائقـة على الملاحظة .

ويرى العربى أن المسيحية هى شكل من أشكال الديانات نقية فى الأصل ، أى فى روحها ، ثم تم تحريفها بعد ذلك ، بينما القرآن الذى لا يضاهى هو الكلمة الخالدة لله ، وبمقارنة عيسى بن مريم بالرســول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، ذلك الاسم الذى ارتبط ارتبــاطا وثيقا بالله سبحانه وتعالى ، نجد أنه بينما أعطى القرآن سيدنا عيسى وضعا مميزا ، وذكر أنه كلمة الله ، وروح من الله ، وذكر أنه وليد العذراء مريم بلا خطيئة — نجد أن الانجيل لا يشير الى النبى محمد بشىء بعد أن حرفوه ، طمسا لمعالم النبى محمد عليه الصلاة والســلام ، الذى كانت رسالته الاسلام ، وكان القرآن هو المعجزة التى قامت عليهــا رسالته •• والواقع أن الرسول الكريم قد تمــيز بأنه كان لديه كل المؤهلات المطلوبة لقيادة الدعوة الموحى بها اليه من ربه ، جل وعلا ، وقد أصبح كذلك بالفعل فى المدينة ، هذا الى جانب درايته الكافية بالتقاليد السائدة ، وقد قدم — كنبى — عنصرا جديدا للمجتمع القبلى ولغيره من المجتمعات • ولم يقم بالغاء القانون التقليدى فقط ، ولكنه قــدم أيضـــا قانونا إلهيــا ، وهو القانون الأعلى والأعظم ، وخلق مجتمعا سياسيا أكبر ، وهو الأمة أو الدولة الاسلامية ، ومع أنه لم يخلع على نفسه أى ألقاب لابراز شخصيته ، فان الملايين من أتباعه قد أعطوه ألقابا كثيرة وعالية كتكريم له • وأثناء معركة مع اليهود أصيب الرسول عليه الصلاة والسلام فى وجهه ، فجذبه أبو عبيدة : فلاحظ نزف الدم من وجهه الكريم ، فمص أبو عبيدة الدم ، وحينئذ قال الرسول ما معناه « من لمس دمى لن تمسسه نار فى الآخرة أبدا » •

وقد كانت هناك محاولات للارتداد عن الدين ، وخاصـــة بعض محاولات التنصير ولكنها لم تنجح ، لأن الاسلام قــد بنى على عقيدة راسخة وايمان غير مزعزع ، ليكون الديانة الحقيقية الوحيدة ، ولذلك فان الارتداد عنها هو حماقة واضحة •

وفى العالم الاسلامى الكبير بوجه عام ، يقبل النصرانى كمسيحى ،

والمسلمون بوجه عام يحترمون المسيحى المستقيم ، ولقد لاحظ المستكشف الهولندى « د• فان ديرهولين » فى السعودية ، أن الأمريكيين اذا ما أرادوا دخول البلاد من البداية كمسيحيين معترف بهم فسوف يقابلون باحترام ، وسوف يسمح لهم بحرية العبادة على طريقتهم ، فى أماكن محددة لاقامتهم ، ولكن الأمريكيين قد تجاهلوا عاملا جوهريا فى اتصالهم بالعرب ، وهو أن العرب المؤمنين لا يثقون فى المسيحى الا اذا تبين لهم فقط أنه مؤمن بإله واحـــد •

ولقد قال الشـــيخ شخبوط حـــاكم أبى ظبى للكاتب الانجليزى « رودريك اوين » : لابد أنك تفتقد كنيستك اليوم • وانى آسف أنه لا توجد كنيسة لك فى أبو ظبى ، فرد « أوين » •• ولكن ألا ترضى عن وجود كنيسة هنا ؟ • فرد الشيخ « أرضى بالطبع — فأنت تريد دينك كما نريد ديننا • ونحن مؤمنون ، ونعلم أنك ستكون أفضل كثيرا عندما تذهب للكنيسة » •

وكانت النتيجة الطيبة للبعثة الأمريكية فى مسقط ومطرح هى التغلب على سوء الفهم والتحامل ، وهى التى حدثت أولا عن طريق الطب ، ثم التعليم ، وكان مما يشجع أفراد البعثة على انجاز مهمتهم — ذلك العطف والرغبة فى المساعدة ، ثم صداقتهم للناس هناك ، وكذلك الأعمال العظيمة التى كان يؤمن بهـــا كل فرد فى البعثة ، وهى التى استقبلها المسلمون بالشكر والتقدير ، وبالتالى فيمكننا القول ، بأن الحب والقبول كان لفرد البعثة نفسه وليس للمسيحية ، ذلك لأن الاسلام — ذلك الدين الذى حل محل عبادة الأوثان وكان خاتم الرسالات — لا يمكن الارتداد عنه أبدا ، فقد انتشرت الدعوة الاسلامية فى أنحاء الأرض ، واعتنقها الملايين •

وعندما أطلت علينا الحقبة الحديثة انتشر الدين الاسلامى ، وأصبح كما نراه اليوم • وقد انقسم العالم الاسلامى بعد ذلك الى شيعة وسنية ، ففى اليمن يعـــارض الناس أهل الســـنة ويمارسون مذهبـــا آخـــر

« الزيدية » على طريقة الشيعة ، أما فى عمان فالغالبية يتبعون مذهبا يختلف عن الشيعة والسنية ، وهو المعروف بالاباضية ، وان الشخصية الاباضية هى الموضوع الذى تجدر مناقشته للوصول الى شخصية الدولة ، بصفة عامة ، ومساجد الاباضيين فى عمان لا تزين من الداخل ، لأن ذلك يتعارض مع بساطة الاسلام •

وقد ظهرت المآذن التى تراها اليوم فى تاريخ الفن المعمارى أخيرا ، ولكنها لم تتقبل فى عمان ، واذا ما عدنا الى العصور الأولى للاسلام فسنجد أن المساجد لم يكن لها مآذن ، وقد كان مؤذنو رسول الله يؤذنون للصلاة من مدخل المسجد •

وتعتبر الصلاة حجر الزاوية فى الاسلام ، اذ أنها عماد الدين ، فهى التى تعصم الانسان من الخطيئة ، ويقيم الاباضيون صلاة الجمعة فى المدن الرئيسية « نزوى » و « صحار » أو حيث يختار جلالة السلطان ذلك •

والمسلم مطالب كما ذكر فى القرآن الكريم بأن ينتظم فى صلواته •• الفجر — الظهر — العصر — المغرب — العشاء •• وأن يؤديها فى أوقاتها •

وينظر الاباضيون الى الاسلام والايمان كشىء واحد غير منفصل ، ولا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر ، ومن يبتعد عن الاسلام يبتعد عن الايمان ولا يكون مؤمنا ، ولذلك فالايمان لا يكون كاملا ما لم تتبعه أعمال تنفذه ، ويؤمنون كذلك بأن الانسان سيحاسب على أعماله • ويقولون إن الله يختار عباده ، كما يرى الاباضيون أنه من الحرام أن تتزوج امرأة من رجل ارتكب الزنى معها ، ويقولون ان من يرتكب الخطيئة الكبرى ربما يؤمن بوحدانية الله ، ولكن ايمانه ناقص ، لأنه لا ينفذ التعاليم ، ويؤكدون أن النية لابد وأن تسبق العمل ، وأن عمل الانسان من صنع الله ، وأن العالم الى فناء • ولابد أن يكون الناس مطيعين لله ، ومن يعص الله فهو غير مؤمن ، وأن من يرتكب خطيئة كبرى ،

مثل القتل والزنى ، يفقد حياته ، وأنه على الانسان ، كى يعرف الخير والشر ، أن يرتبط بمصدر المعرفة وهو القرآن الكريم والسنة المحمدية ، وعليه أن يفعل ما أمر الله به ، ويجتنب ما نهى الله عنه من المعاصى •

وفى رأيهم أن الفرق بين الشرق والغـــرب ليس فرقا جغرافيا أو جنسيا ، وانما هو بين أولئك الذين تأثروا بتعاليم الانجيل ، وبين الذين لم يتأثروا به • كما أن الانجيل قد وجد فى الشرق ومن أجل الشرقيين ، ولم تصدر الترجمة العربية لبعض أقسام الانجيل الا بعد وفاة الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه •

وليس من شك فى أن تعاليم عيسى عليه السلام قد حظيت بتقدير كبير فى الشريعة الاسلامية ، بيد أن بعضا من مضامين الانجيل كانت حتى ذلك الوقت باهتة ، وتتضمن تفاصيل مشـــوهة ومتقطعة فى بعض أجزائها ، وان بعضها مشكوك فى صحته ، بل انه ربما حدث فيها بعض الخلط فيما بين مريم العذراء أم المسيح وبين مريم أخت هارون •

ولقد رأى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أن المسيح واحد من الرسل السابقين ، وأنه استنكر موقف اليهود من الديانة التى نادى بها عيسى عليه السلام وعدم تصديق اليهود لها •

ويروى عن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ما معناه ، أنه قال لعمر بن الخطاب مرة ، من أساء الى مسيحى فكأنما أساء الىّ ، وهذه الحقيقة ظلت ماثلة فى أذهان المسلمين نحو المسيحيين ، ولعل أبرز الأدلة على تسامح المسلمين هى تلك القصة الفريدة لشهداء المسيحية فى قرطبة بأسبانيا الذين استماتوا لكى يستشهدوا ، وان لم ينجحوا فى ذلك دائما •

ان محاولة المسيحيين للتنصير فى عمان خلال ألف العام الأولى للاسلام كانت نادرة وعقيمة ، وكان كاتالان ريموند هو أبرز الدعاة الى

النصرانية الذين زاروا البلاد العربية فى فترة القرون الوسطى ، ولم تجر بعده محاولات جديدة الا بعد مرور نحو خمسمائة عام •

وفى عام ١٨١١ م هبط « هنرى مارتين » مسقط بشعاره المتعصب « دعونى أحترق من أجل الله » ثم جاء بعده رجل انجليزى متخصص هو مارجور جنرال هيج من الجيش الانجليزى ، وقد تجول على ساحل الجزيرة العربية عام ١٨٨٦ م ووصل الى داخل اليمن ، وقد كتب عن عمان ، انها تنفصل عن بقية الجزيرة العربية ، حيث الصحراء الرملية الشاسعة ، وكذلك فى مجال اتصالها بالعالم ، وذكر أن عمان جزيرة تتصل بالبحر من جانب واحد ، ثم بالصحراء من بقية الجوانب •

وقال هيج ان مناخ مسقط هو المسئول عن وفاة قائد البعثة الذى أتى من الهند ، اذ أنه مات بعد ٩٥ يوما قضاها فى عمان أثر ضربة شمس •

وقد استرعى مقال الجنرال هيج الذى نشر فى احدى المجلات انتباه طالب موهوب بجامعة كمبريدج ، هو ايان كيث فالكونر ، فكون أول بعثة للتنصير ، ولم يكن حظه الا مصير من سبقه ، فقد مات بالملاريا بعد اقامة عشرة أشهر فقط فى شبه الجزيرة العربية •

ولقد أثرت هذه التضحيات التى قام بها بعض الدعاة الى دين النصرانية فى مناطق الجزيرة العربية فى نفس شابين أمريكيين هما صمويل رويمر ، وجيمس كانين ، فقاما باعداد بعثة تنصيرية •

وفى ١٨٩٧ مات « بيتر » شقيق « صمويل » بعد استكشافه للجبل الأخضر ، وفى عام ١٩١٩ وصل « د• شاروت توماس » (فى أول بعثة طبية لعمان) الى مطرح ، ومات عام ١٩٢٣ بضربة شمس ، وهو يقيم خطا تليفونيا بين مسقط ومطرح ، وقد أرسل السلطان قاربه البخارى لينقله الى مقابر المسيحيين فى مسقط ، وذلك قبل ٢٠ عاما من وصول طبيب آخر لعمان •

وفى عام ١٩٤٨ أعطى السلطان أرضا لبناء مستشفى ، تخليدا لذكرى شاروت ، وتمت اضافة مبنى آخر للعلاج والرعاية ، وقد تم علاج ١٤٠ مريضا بالجذام ، وكذلك أربعمائة مريض بأمراض مختلفة منذ عام ١٩٤٨ .

وقال توماس للكاتب : « ربما تعجب من سبب عودتى الى عمان مرة أخرى ، ولكن هناك قوى كثيرة دفعتنى لذلك .. منها حب والدى للناس وللبلاد ، والخروج للبحث عن الماس ، وقد عشنا فى منزلين على الشاطىء ، استخدم والدى الطابق كعيادة حيث عالج أعدادا كبيرة من المرضى فى الصباح ، وأما العمليات فكان يجريها فى المساء ، وقد بذلت أمى جهدا كبيرا لجعل الطابق الثانى أكثر راحة وجاذبية ، وقد كنا نعانى متاعب كثيرة من الحشرات ، ومن ارتفاع درجة الحرارة ، ولم يكن لدينا مراوح كهربائية أو ثلاجات ، وكنا نخرج لأشجار النخيل وسط الوادى الضيق ، خلف بوابة المدينة ، للهروب من ضجيج المدينة ، ولنستمتع بالنظر الى شىء أخضر .

وكنا نرى المصابين بالجذام يتجولون ، وكنت أخاف منهم ، فقلت لأبى : لماذا لا ترعاهم ؟ ورد بعدم وجود امكانيات ، وقال لى : عندما تكبر قد تكون طبيبا ، وعليك بعلاجهم بالطرق الحديثة ، وحتى عام ١٩٥٥ كان « د. ويل » وزوجته هما الوحيدين اللذين يعرفان عمان من الداخل ، حيث تقابل « ويل » مع المشايخ وعالج بعضهم ، أما الآن فهناك المستشفيات الحديثة ، والأطباء المؤهلون الذين يحبون الناس ، ويحبهم الناس ، والذين يعرفون التقاليد واللغة المحلية ، وقد أسسوا فى الكويت كنيسة مسيحية .

وخلاصة القول ان الدين الاسلامى يعنى الكثير فى حياة المسلم اليومية ، أكثر مما يعنيه الدين المسيحى فى حياة المسيحيين اليومية .

ويمكن لمسيحى الغرب أن يتعلموا من مسلم الشرق ، فالمسيحى ذو القلب الضعيف لابد أن يتأنى وهو يسير فى الوضاعة والمذلة ، فينظر

لاحترام المسلم لنفسه ، حيث الروح والكرامة ، والمساواة المطلقة للانسان تجاه الله ، ويجب علينا أن نشهد لهؤلاء الرجال بلا خوف أو تردد أنهم هم المؤمنون . وقد كتب « جوزيف بيت » دارس اللغة العربية يقول : « هل كان المسيحيون على استعداد للاعتراف بالمسيح ، والاخلاص له بشدة على النحو الذى يخلص به أتباع محمد صلى الله عليه وسلم له ؟ وهل كانوا على استعداد للسير كما سار المسلمون فى طريق الاسلام الحنيف ؟ ان الحقيقة كلما كانت أقوى كان الانسان أشد حكمة وايمانا ، ولهذا فللمسلم دور سليم يعرفه ، فاذا كان له قدرة على تغيير الشيء الباطل كان عليه أن يغيره ، واذا لم يكن له تأثير فلينكره ، وليس هذا بالدرجة الأفضل .

الفصل الثالث

صحار

الجبال – مسافرو الصحراء – الطريق البرى – أشجار النخيل فى الباطنة – صحار – موطن بلاد السندباد – صحار قديما والآن ٠

اكتمل فريقنا بعد وصول « د٠ كروز » عضو البعثة الطبية الفعال ، وأود أن أتحدث عنه قليلا ٠

كان « د٠ كروز » ذا قيمة عظيمة فى رحلتى الاستكشافية الرائدة فى بيحان عام ١٩٥٠ ، وكان أستاذا فى جامعة « جون هوبكنز » وجامعة « ميرلاند » وبعض المدارس الطبية الأخرى ٠

وخلال الحرب العالمية الأولى ، كان جراحا فى الجيش على خطوط المواجهة ، وذات مرة قال له الجنرال « بير شيخ » أيها الشاب ، لا تدع تنظيمات الجيش تجعلك أحمق ٠

وخلال الحرب العالمية الثانية كان رئيسا لقسم الطب الباطنى فى مستشفى « والتر ريد » فى « واشنطن » وذات مرة أعطى القائد أمرا لكل المرضى ، بأن ينهضوا من فراشهم عندما يدخل العنابر ، ولكن « كروز » رفض ، وأصر على الرفض ، وقرر أن يبلغ القضاء العسكرى ، وقال له : ان الميعاد ٨ صباحا اذا كان يناسبك ، أيها القائد فانه لا يناسبنى أنا ولا المرضى ٠

وعند المساء دعانى السلطان أنا و « بيل » على الشاى ، ووافق جلالته على طلبى ، بشأن اصطحاب « البروفسير هاينمان » الى دبى ،

والشارقة ، لاكمال برنامجه الجيولوجى فى صحار ، وعند وداع السلطان احسست بالحزن ، وأخذت بلا وعى آلة تصويره الخاصة ، لآخذ له عدة صور فوتوغرافية ، وقد أرسل السلطان رسالة رقيقة لمكتب الجمارك فى « أسود » على الطريق لدبى ، وكذلك الى شيخ بنى كعب ، ووالى البريمى ، وقد علمنا أن الشيخ صقر ، ومعه طالب بن سليمان ، قد ذهبا قبلنا الى صحار لاعداد الترتيبات •

وفى ٨ يناير عام ١٩٥٨ قام « بيل » بتصوير رحيل القافلة من بوابة المدينة الرئيسية ، والبوابة تمثل رمزا للحياة فى المدينة نفسها ، وقد فتحت الطريق من مسقط الى مطرح — محطتنا الأولى — بأمر من السلطان •

وفى مطرح تتقابل السفن البحرية مع سفن الصحراء ، حيث يقع حصن برتغالى حصين ، فوق قمة صخرية ، والأجزاء المنخفضة للأرض القريبة من البلدة بها منازل صخرية وأبراج ، وتعتبر مطرح هى المدينة الصغيرة الأخت لمسقط ، وبها جبال بركانية ، ولا تتعرض للرياح الشمالية الغربية التى تهب أحيانا على مسقط •

وتضم مطـــرح — وهى أكبر مدينة فى عمـــان — المتحف الرئيسى للسلطنة ، ويتكون المجتمع فيها الى جانب الســـكان الأصليين من بعض الأقليات ، التى يسكن بعضها فى أحياء مسورة داخل مطرح ، والخوجا من الزيدية فى اليمين ، وهم تاريخيا فرع من الشيعة رغم أنهم مختلفون الآن الى حد كبير ، ولا يمكن تمييزهم ، وهم ينتمون الى العقيدة الاسلامية •

وهناك استراحة خارج سور المدينة على الطريق الرئيسى للقوافل ، وتشحن فيها مئات الجمال ، وتفرغ يوميا ، وتحمل التجـــارة من أعالى عمال ، وهنا توقفنا لالتقاط بعض الصور ، وشاهدنا قافلة جمال حاملة التمر من الداخل •

وفى مطرح توجد الجمال ذات السنام الواحـد ، ولا نوجد أنواع أخرى ، ولا توجد جمال وسط آسيا هنا ، والراكب فى عمان يجلس على ظهر الجمل فوق سرج صغير مغطى بجلد الابل ، ويختلف من حيث الشكل الى حد كبير لمـا هو عليه فى الحجاز ، وسوريا ، حيث يجلس الراكب على سرج كبير ، يوضع على أعلى قمة الظهر ، وهنا تحسب ثروة الانسان بحسب ما يملكه من جمال ، والمالك هو من يجلس على الأرض ، ويرى آثار أقدام جماله تملأ الأفق ، وقديما كان المالك يترك جماله فى المرعى لسنوات عديدة ، وعندما يريد جماله يذهب لمكانها ، ويتعقب آثارها حتى يجدها ، وهذا بالطبع كان يأخذ وقتا كبيرا ، ويفتح الباب أمام اللصوص والمغيرين ، وهذه المناطق كان الجمل اذا شعر بالظمأ فعليه أن يجرى الى أقرب نقطة ماء ، وينتظر مرور بعض الجمـال ليشرب معهـا ، وهذه عادة الصحراء .

وقال المستكشف الانجليزى « كروز » فى مذكراته عام ١٨٦٧ « بينمـا كنت فى انجلترا قرأت وسمعت أكثر من مرة عن (الجمل الوديع) . هل هـو وديع ، وهل وديع تعنى « أحمق » وفى مثل هذه الحالة وجدت أن الجمل هو أعظم مثال للوداعة ، وسألوا الجمل ، أيهما تفضل السفر لأعلى أم لأسفل ، فأجاب اذا كان حاملا شحنة فليأخذها الشيطان كلها » .

وفى كتاب « ب . سبيروك » مغامرة فى الجزيرة يحكى قصة لجمل مات بعد أن جر نفسه لعدة أميال الى عين ماء ليشرب منها ، ويقسـم العرب على ذلك ، ولكن مات قبل أن يشرب لأن جثته ربما تنجس المـاء ، ويتسمم من يأتى ليرتوى منها ، بينما ذكر « س . ب ميل » فى رحلته لخليج فارس ، أن هناك تشابها غريبا بين شخصية العربى وبين جمله ، وبين هذه الأشياء ، التى يتشابهون فيهـا ، كرههم للظـلم ، والمزاج العصبى ، والسهولة التى يهدأون بها .

وهناك قصة لجمل قتل انسانا بعد أن هرب الرجل ببعض الأشياء ، وبدأ يتسلق آملا فى الخروج من المأزق ، ولكن الجمل وصل اليه ورفع رقبته ، وجذبه من قدمه ، وبدأ يضربه ، ثم جثم عليه ، حتى تكوم وكان الجمل يأتى كل يوم ليرى الجثة وينظر الى ما تفرق منها •

ويشير بدو الجزيرة الى عمان أحيانا بأنها أم الابل « الجمال » لأن اليومانية هى ملكة الابل ، وهذا المصطلح يشير الى فصيلة وحيدة من الجمال ، لهـا رأس ورقبة أفقية مع الأرض ، ويمكن لليومانية أن تقطع ٥٠ ميلا فى الساعة وأحسن فصيلة فى عمان توجد فى الباطنة من ســاحل الباطنة ، وهى مشهورة بصبرها وقوتها التى لا تضعف مع الوقت ، وتشتهر بأنها تقطع مائة ميل فى المتوسط يوميا ، لأكثر من أسبوع ، وقد قطع أحدهم ٩٥ ميلا بين البريمى وأبو ظبى ، فى أقل من اثنتى عشرة ساعة •

وتاريخ الجزيرة ملىء بالقصص والحكايات ، التى تصف قــدرة الجمل على التحمل والصبر ، ثم ان الرحــلات الاستكشافية كانت فوق ظهور الجمال ، وهناك قول مأثور عند العرب ، وهو أن معظم النســاء مثل الجمل المتهادى ، ويتفق العرب على أن الابل هى نعم وعطايا من الخالق للبشر ، والجمل أعظم كل هذه النعم ، من الخالق للجنس البشرى •

فكل جزء من الجمل سواء كان حيا أم ميتا يتم استخدامه ، فالشعر للحبال والخيام ، واللبن واللحم كطعام ، والجلد والعظام للوقود ، وعندما يذكر الجمل يتذكر التاريخ رحلات القوافل ، ولازالت آثار الجمال تحكى عنهــم •

ويقول « ويلفريد ثيسيجر » فى وصف رحلته « منذ أيام مررنا ببعض الآثار لجمال ، ولم أكن متأكدا من ذلك لأن الريح غيرت معالمها •• والتفت

السلطان لرجل ذى لحية كان دليلنا وخبيرنا فى الآثار ، ثم أخذ الرجل يتابع ، وقال انها العوامر ، فقد أغار ستة رجال على جبنة فى الساحل الجنوبى ، وسرقوا ستة جمال ، وجاءوا هنا من سهامه ، وارتوا فى مغشن ، ومروا منذ عشرة أيام ، ويقل لك العمانى ، خذ رجل قبيلة فى رحلة لمدة ثلاثة أيام ، ثم ارم دولارا فى الصحراء ، وبعد سنوات يستطيع هذا الرجل أن يهتدى لأثره ، ويعود لأخذه ، وتختلف طريقة شرب الجمال هنا عن طريقة شرب الجمال العسكرية التى تشرب يوميا ، ولا تستطيع أن تسير بدون ماء ، وجمال الصحراء اعتادت السفر الطويل لأيام كثيرة » .

ويقول « جوك سنيل » انه ركب جملا ، وسار به لمدة سبعة عشر يوما بلا شرب ، وكان يبلل شفته فقط ، وسنام الجمل هى جهاز قياس حالة الجمل من الداخل ، السنام السمين يدل على الطعام المناسب والملح المنتظم وعلى أن الأمور داخل جسم الجمل تسير على ما يرام .

وفى وادى النيل يظنون أن المرأة اذا أكلت لحم جمل قرب ميعاد ولادتها ، فان ذلك يعوق الولادة ، والبدو فقط هنا هم الذين يأكلون لحم الجمل ، وهناك قول مأثور « ما لا يمكننا أكله نعطيه للمرأة لأنها تأكل كل شىء » .

وقد عرف أخيرا أن ترويض الجمل لم يتم منذ فترة بعيدة .

وقـد ذكر « البروفيسور ديليام ف . البرت » عام ١٩٤٠ م أنه لا يوجد دليل واضح على وجود الجمل الأليف فى جنوب غرب الجزيرة العربية .

ومن الحقيقى أن الحفريات التى وجدوها فى العراق يرجع تاريخها الى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد ، ولكن أول ذكر للجمل العربى فى أى نص لم

يعرف من قبل ، وباختصار فان استئناس الجمل لم يتم قبل الربع الثالث من الألف سنة ، وحيث كان الجحش سيد هذا المجال ٠

ويجب أن نؤكد رغم ذلك أن الجمل كان معروفا قبل الألف سـنة الثالثة ، ولكن أين تم استئناس وترويض الجمل العربى ؟ يظن « البرت » أن هذا قد تم فى جنوب الجزيرة العربية ، ولكن الحفريات لم تدل على ذلك ٠

وحدد الباحث الألمانى الشاب « دالتر » وسط الجزيرة العربية ، ولكن « فيليب » ذكر بأن نجد من طبيعة حجرية ، ولا يمكن أن تعيش فيهـا الجمال ، ومن الجنوب الشرقى للجزيرة العربية ينتشر الجمل المستأنس الى نجد ، والى الجنـوب الغربى للجزيرة العربية حيث عرفت القوافل أهميته بسرعة ، وفى القرن العاشر قبل الميلاد قادت ملكة سبأ أول رحلة بالجمال ، سجلها التاريخ لزيارة الملك سليمان فى القدس ٠

وبفضل استخدام الجمال تحول الناس فى الجزيرة العربية من جامعى ثمار الى تجار ، وقد نكون مصيبين اذا أرجعنا تاريخ الترويض بين عامى ١٦٠٠ — ١٢٠٠ ق ٠ م ٠ ولكننا سافرنا بعد ثلاثة آلاف سنة بعد ذلك الحدث الى حيث تتقاطع الأودية الضيقة مع قنوات الرى ، والسدود الصخرية ، على ارتفاع ثلاثة أقدام ، وهو جزء من الأحراش المنتشرة ، ووجدنا هناك هذا السهل الساحلى المنحنى الذى يحمل اسم الباطنة ، ويسمى الأرض المنخفضة ٠

أما أنظمة الوادى فلها جذور تمتد الى ١٥ — ٣٥ ميلا وراء السهل فى جبال الحجر العالية ، وتقع وراء سلاسل الحجر المحافظتان الظاهرة ،

وعمان ، وتقع الظاهرة فى الغرب ، وتطل على الصحراء بكثبانها الرملية فى الربع الخــالى •

وتعتبر عمان الأم هى المركز الحيوى الرئيسى لعمان ، وتقــع فوق سطح البحر ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ قدم ، تجاه المحيط الهندى ، ووراء الأحجار الشرقية توجد محافظتا الشرقية ، وجعلان ، وترتبط الشرقية بعمــان الحديثــة ، أما جعــلان فتقع بين المحيط الهندى والركن الجنوبى الشرقى من الشرقية •

والملامح البارزة فى عمان هى سلسلة جبــال الحجر الغربى ، التى تنتهى بالقرب من رأس الحد ، الجزء الذى يفصل خليج عمان عن المحيط الهندى وتسمى البقعة القاحلة ، والجبال الوعرة من دبا الى رأس مسندم المعروف باسم رؤوس الجبال ، ورغم ذلك فان المضايق الرئيسية الثمانية التى تجرف مياه البحر لهذه الجبال تسمح بالاتصال الخارجى والتجارة بين الباطنة والداخل ، وأكبر مضيق يضم حوالى مائة قرية وستمائة ألف نخــلة فى وادى سمايل ، الذى يقسم السلسلة الى شرقية وغربية ، والذى يقابل انحدار الجبل الأخضر الى البحر فى السيب ، ويمثل شريان التجارة بين مسقط والداخل ، والسهول الساحلية التى تحيط بمعظــم شبه الجزيرة العربية عارية لا نبات فيها •

وساحل الباطنة ليس به ميناء ، ويمتد بطول ١٢٥ ميلا ، وهو أحد الاستثناءات الملحوظة ، ويضم نصف سكان عمان ، وسكان الباطنة هنا يولدون ويموتون فى هذه الحدود ، حدود أشجار النخيل ذات الثمار ، وأغلبية الــ ٢٠٠ قبيلة المعترف بها تسكن الباطنة ، وتعتبر الحواسنة ويال سعدهما أكبر القبائل ، وتمتد الباطنة فى نمط متكرر ، ميلا بعد ميل ، وهى تبدو بلا نهاية ، وأرضها خضراء خصبة ، يحجبها غطاء من الرمال

الجافة ، وهناك شاطىء رملى أبيض متواز مع أشجار النخيل ، يؤدى هو الآخر للداخل ، حيث السهل الملىء بشجر السنط الممتد الى الجبال السوداء فى الخلف ، والتربة الرملية الحجرية متآكلة الجوانب •

وقد عوضت الآبار عن نقص ماء العيون والمجارى الدائمة ، تلك الآبار الكثيرة ، ومما يلفت النظر أنه على الرغم من أن هذه الآبار موجودة فى الصخور وتهب عليها مياه البحر فانها تختزن الميـاه داخلها ، ويتم سحب المـاء منها بالوسائل البدائية ، وهناك حبل ذو طرفين فى أحد أطرافه دلو من الجلد ، والطرف الآخر يجره ثور ، وهكذا يتم نزح الميـاه ، ولا تستخدم الجمال فى رفع المياه هنا ، وهناك أشجار كثيرة فى كل مكان على الساحل ، أما الأخطار المحدقة بتلك الأشجار فأهمها الرياح التى تهب ، فتأخذ من الثمار بعضها ، تسقطه كما لو كان ضريبة المرور ، وهناك الآفات التى تتلف الثمار ، ولكن هناك دائما أشجار جديدة تحل محل المريضة التى اجتثت ، ويرتبط الفلاح بهذا النخيل ارتباطا وثيقا ، فهـو يسعد لازدهاره ، ويتدهور لتدهوره ، وهناك المنازل المتشابهة المبنية من الطين والحجر •

وتعيش كل أسرة فى منزل من ٣ ، ٤ غرف ، وتستخدم أشـجار النخيل كجدار للمنزل ، وتعتبر حرفة قطع الأشجار تجارة ماهرة بالآلات الحديثة ، ومن المعتاد أن العامل يطلب بيضا ولحما ، بالاضافة الى مرتبه كى يحافظ على قوته وصحته من أجل العمل ، ويغطى المنزل أو الكوخ بسعف النخيل ، وتباع أعشاب الحدائق فى الأسواق كعلف للابل ، والكروم من الفاكهة العريقة فى عمـان ، وهناك الموز ، والبطيخ ، والمانجو ، وشجر الرمان ، والتين ، والزيتون •

ومنذ فجر التاريخ يوجد فى عمان التلقيح الصناعى لأشجار النخيل ، ويظهر ذلك أيضا عند وصف « هيرودوت » لبـابل •

وتقارن النخلة بالانسان ، اذا قطعت الرأس تموت ، واذا ماتت واحدة من النخيل لا تحل محلها أخرى ، وتغطى بليف مثل شعر الانسان والشجر الذى ينمو فى الأماكن المرتفعة ويخلو من المرض يقال « ان هذه النخلة قدمها فى الجنة ورأسها فى النار » وفى وقت الحرب يعتبر من الأهمية أن تقطع أشجار النخيل بعيدا عن أعين عدوك ، لأن وجودها علامة الرخاء ورمز التجمعات •

ويخبرنا « ريفيرن جون فان اس » عن رحلته الخاصة بقوله « منذ سنوات مضت وصل الى المعسكر خطاب ، ولم يكن هناك مصباح لقراءته ولكن النساء قامت بعمل مصابيح من ثمر النخيل على شكل كأس وضعوا فيه السمن » •

وأشجار النخيل وقت النهار حيث تشـــتد الحرارة يمكن أن تكون مكانا جميلا للاسترخاء واستسقاء الجمال ، وحياة الواحات أكثر راحة من حياة الصحراء ، ويشار الى قبائل الواحات بأنهم « أهــل النخيــل » وكقاعدة عامة فان العمانى يأكل التمر ، الذى يقولون عنه ، انه عصب الحياة أو حفيد الأرض ، ويقال ان هناك أكثر من مائة نوع من البلح ويؤكد العمانيون أن الزوجة الصالحة هى التى تضع أمام زوجها يوميــا انــاء من التمر • ويصنف العرب التمر الى حار ، ورطب حسب مذاقه ، وتنتج عمان أنواعا كثيرة من التمر ، وتمر الباطنة ينضج قبل أى تمر آخر ، وهناك أنواع فى الباطنة تسمى أم صلاح وتعرفها أسواق الجزيرة جيدا ، وعندما يصل التمر الى درجة الاحمرار يباع بأعلى سعر ، وهناك أنواع لا حصر لها من التمر ، ولها أكثر من ٥٠٠ اسم ، وهنا ينظرون الى النخلة بأنها « ملكة الشجر » والجمل ذو السنام والنخيل هما فى الواقع رمز الجزيرة العربية ، وفى الخارج من سهل الباطنة قطعنا حوالى نصــف الطريق الى صحار ، وقضينا أول ليلة فى الخلاء ، وكان المرشدون يتناوبون

الحراسة ببنادقهم ، ثم قمنا فى السابعة ، وكان اليوم باردا ، وغير مناسب لالتقاط الصور ، وهطلت الأمطار .

ومن السويق . حيث الحصن الثالث على ساحل الباطنة الى الخابورة كان الممر ضيقا ، وكنا نسير فى أراضى النخيل . والتقاليد هنا تقول « عندما يشرب الكلب من وعاء فيجب غسله سبع مرات » ، على أن تكون احداها بالتراب ، وبصفة عامة فان الكلاب محتقرة فى العالم الاسلامى ، على أن من الأعمال الطيبة أن يطعم الانسان حيوانا ، ويقال ان الكلب الأمين أفضل من الرجل الناكر للجميل .

وبعد أن رحلنا من القرى الساحلية فى صحم عبرت القافلة ثلاثة أودية ، فى السبعة عشر ميلا الأخيرة ، وفى الثالثة بعد الظهر وصلنا الى مقصدنا ، والمكان الجديد هو صحار .. وهى المدينة الرئيسية على ساحل الباطنة .

وعندما ظهرت صحار تاريخيا عام ٨ هجرية ٦٢٩ م كانت قبيلة الأزد تحكم عمان ، وعندما وصل مبعوث الرسول محمد عليه الصلاة والسلام الى الأميرين عبد وجيفر نجلى الجلندى الذين حكموا ٤٠ عاما فى السنة الأولى من بعثة الرسول حيث تم استدعاء شيوخ عمان فى نزوى ، ثم تم الاتفاق حول ضريبة الزكاة التى أمر بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وعم الاسلام صحار ، بعد ذلك ، وبلا شك ان الاقتناع بالعقيدة لعب دورا هاما فى ذلك الوقت ، لأن الصلابة والاصرار والتضحية من أجل الاسلام جاءت بدرجات متتالية ، وعندما توفى الرسول ذكر الرواة بأن الرسول قد كفن فى ثلاثة أثواب من صحار ، ودخل جيفر الاسلام ، وهرب للجبال ، ثم أرسل أبو بكر ثلاثة قواد الى البحرين والبريمى ، ويقال ان صحار هى موطن السندباد البحرى فى الليالى العربية

المشهورة ، وربما تكون الباطنة هى الأرض التى تسكنها الوحوش والثعابين ، وليس هناك دليل على ذلك رغم هذا الملاح المسمى بالسندباد كان موجودا بالفعل ، لأنه شخصية حقيقية ، واسم السندباد من أصل ايرانى ، وربما كان اسمه سندبام ، وهو مغامر فارسى ، وملاح معروف جيدا فى الأدب العربى ، وقصة « سيكلوبيس » فى « الأوديسا » شبيهة فى معظم أجزائها بقصة السندباد ، ووادى العقيق •

وتعبر قصص ألف ليلة وليلة عن نشاط وازدهار التجارة العربية الدولية عن الرومانسية ، وعن الأخطار والمغامرات ، والاشارة الى صحار كموطن للسندباد ربما تشير الى أهميتها كميناء بحرى ، يأتيـه التجـار والبحارة بلا خوف •

ومع منتصف القرن العاشر كانت صحار أهم مدينة فى عمـان ، وأجمل مدينة فى الخليج ، وصحار أغنى وأكثر سكانا من كل مدن عمان ، ومن المستحيل أن تجد على الخليج مدينة اسلامية أجمل وأعظم من صحار ، التى كانت مركزا للتجارة •• وقد كتب المسعودى المتوفى عام ٩٥٦ هـ والذى وصف بأنه « هيرودوت » العرب كتابه « مروج الذهب » وقد قال فيـه : انه سافر مرات عديدة ، من صحار ، المدينة الرئيسية ، الى مدغشقر •

وقد كتب المقدسى « ان أعظم ميناءين فى العالم هما عدن وصحار •• صحار عاصمة عمان ، حيث الثروة والأسواق الكبيرة الممتازة ، وتحفل صحار بالأحداث التاريخية الهامة ، ففى عام ١٠٤١ حاصرتها واحتلتها القوات البحرية الفارسية ، كمدخل لغزو عمان ، وفى منتصف القرن الثانى عشر فرض

ملك عدن سيطرته على الخليج ، وحول تجارة صحار مع الشرق الأقصى الى عـدن ، وفى عام ١٢٧٦ انهال عليها جيش المغول من شيراز ، وكانت أثناءها قوية شديدة ذات أسواق كبيرة للجياد ، وذلك عندما ذهب اليها « ماركو بولو » ولكن مع بداية القرن الثانى تغيرت ، ووصفها أبو الفداء السورى فى أحد مؤلفاته فقال ، لقد رأيت المدينة فى خراب •

وفى ١٦ سبتمبر عام ١٥٠٧ وصل أسطول مغولى الى صحار لأول مـرة ، بعد الاسكندر ، وهى المرة الأولى التى تصل فيها السفن الحربية الى هذه البقعة •

ومدينة صـحار مدينـة جميلة ، عدد سكانها كبير جـدا ، ومنازلها قوية ، وسور المدينة على ارتفاع كبير ، ويحتاج الحصن الذى فيها الى أكثر من ١٧٠٠ رجل للدفاع عنه ، ويسمى الناس داخل المدينة بالبدو ، وأغلبية الخيالة رماة ، والبعض يحملون الرمح والصولجان التركى ، بينما يرتدى كل المشاة تقريبا القبعات والرماح والدروع •

وتقع صحار اليوم بين ساحل البحـر الرملى وبين الامتداد الكبير لأحراش النخيل ، دون أية ملامح طوبوغرافية أخـرى ، ويعيش معظـم السكان فى أكواخ • كل كوخ منفصل عن الآخر يحيط به سور طينى وأعشاب نخيل ، وهنـاك ميدان صغير ، تمثل ملامحه الفن المعمارى المحلى الذى لا تلاحظه فى بقية عمان ، وهناك قلعة يمكن السيطرة منها على منطقة صحار ، ولاتزال مشغولة ومستخدمة حتى الآن ، وقد بنى هذا الحصن أيام الفرس ، ثم أدخل البرتغاليون والعرب تعديلات واضافات تشـمل الرسـوم والآيات القرآنية المحفورة فى الخشب فوق البوابة مثل « العون من عند الله » و « انا فتحنا لك فتحا مبينا » •

ووصف الميناء الرائع فى صحار فى دائرة المعارف الاسلامية محير ، ليس لعدم وجوده ، ولكن لوجود دلائل على كينونته فى الماضى ، وربما كان البوغاز الصغير فى الحدود الشمالية للمدينة فى الماضى متصلا بالبحر ، ولكنه صغير جدا ووسائل حمايته غير متوافرة ، على عكس ما وصف فى دائرة المعارف ، وهذا هو خطأ اعتاده بعض الكتاب الذين يعتمدون على مصادر مكتوبة ، تضم أوصافا رومانتيكية وعظيمة للجغرافيين والمؤرخين العرب ، الذين ينبغى على القارىء الغربى الاعتماد عليهم .

الفصل الرابع

مقابر المليئة — محمد عليه السلام والطب — الكى علاج لكل الأمراض — الصين — أمراض العيون — الجراحة — حمامات بخار الزئبق — أمراض الأطفال •

بعد الاستقرار فى مكتب الجمارك فى صحار ، ذلك المكان الذى جعله السلطان مقرا لاقامتنا ، قمنا بزيارة كل الأماكن المحيطة به ، والتى كنت قد عرفتها خلال رحلتى القصيرة الأولى ، فى نوفمبر عام ١٩٥٧ ، وكانت هذه الأماكن التى تشبه المقابر فى وادى المليئة تمتد على كلا الجانبين لمسافة أربعة أميال ونصف ، وهناك مقابر على هيئة فنجان ، أو أو طربوش مقلوب ، وهناك سور ضعيف يبدو خربا ، وله أبراج للمراقبة ، ووجدنا عين ماء ، تتبعناها حتى وصلنا الى أبنية ، وأبراج مائية جميلة ، على أشكال هندسية ، كل برج له بئر فى المنتصف ، وربما كان الفرس هم الذين شيدوا هذه الأبراج ، بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر ، لتحديد منسوب المياه ، والماء هنا يتدفق من أعلى خلال قناة ، تمر تحت أرض الوادى ، فى أنبوبة ضخمة ، ليرتفع ، ويقابل البرج الثانى ، ثم خلال عين صغيرة الى المدينة البعيدة فى فلج السوق •

وعلى امتداد النهر وجدنا نفقا ، قد شق فى الصخر الصلد ، به انحدارات مائية ، وهذه الأنفاق متصلة بالسطح ، خلال فتحات رأسية للتهوية ، وهذه الأنفاق تجنب ضياع المياه ، نتيجة للامتصاص والتبخر •

من الذى صمم هذا النظام العبقرى الذى يعمل بالجاذبية الأرضية ؟ انه مهما كانت جنسيته ، فارسيا أم عربيا ، فلابد أنه احتاج لعدد كبير

من العمال ، بالاضافة الى قدرته على تنفيذ المشروعات الجماعية الضخمة فى المجتمع ، كى يقوم بحفر مثل هذه القنوات فى مثل هذا الجفاف ، وفى فارس هناك ما يزيد على المائة ألف ميل من القنوات ، يصل بعضها لعمق ألف قدم ، مثل قنوات جانابار ، وأطول قناة فى فارس الآن يبلغ طولها حوالى خمسين ميلا ، ومحاولة الكشف عن قنوات مياه الأنفاق الصناعية فى فارس ليس بالأمر الصعب ، وتعتبر هذه القنوات وكأنها سمة من سمات عمان فى الماضى •

وفى عام ١٨٣٥ م ذكر « ويلستد » أن كل المدن داخل عمان تدين بخصوبتها الى الحالة الطيبة التى أفاد السكان منها أنفسهم بأسلوب توصيل الماء •• وهو أسلوب أبعد مما نتصور • أسلوب غريب نشأ من العمل والمهارة ، وهو أكثر قربا للأساليب الصينية منه الى العربية • وهناك قنوات مشابهة تحت الأرض على امتداد الطريق ، من شمال شرق الصين الى اقليم الصحراء فى الغرب ، وقد وصف « هيردوت » فارس أثناء الحروب فيها ، وذكر الاجراءات البسيطة التى يقوم بها حاملو الآبار فى البلدة أو المدينة ، وكيفية تدميرها وقت اللزوم • وربما يكون نظام الماء العمانى قد تطور فى فارس ، ثم نقل الى الجزيرة العربية •

وفى اليوم التالى تركنا مكاننا ، وقضينا ساعتين من السفر الشاق ، حتى وصلنا الى جبل كبير ذى قمة مدببة ، به أطلال قديمة تسمى حورة البرجة ، وقد سمعت هذا الاسم أول مرة على لسان والد جلالة السلطان فى بومباى •

ثم توقفنا فى نصف الطريق ، أعلى الوادى ، لتصوير مخيمات البدو ، وهناك وبمجرد أن رأونا اصطحبوا الدكتور « كروز » حيث كان هناك رجل مريض ، يرقد على الأرض ، وهنا منطقة مجهولة وموحشة من

العالم ، حيث يسقط البدو مرضى فوق الرمال ، وكان الدكتور « كروز » وكأنه هدية لهم من السماء •

وبعد غذاء سريع فى ركن من الجبل بدأنا التسلق على الأقدام ، ومن القمة رأينا خلفية رائعة منتشرة فى كل الجوانب ، عبارة عن مياه البحر الزرقاء الى الشرق « خليج عمان ، وجبال عمان المرتفعة فى الغرب » وأتذكر أنه قبل ذلك بثلاثة أشهر عندما قمت بأول محاولة لتحديد موقع هذه الأطلال كان دليلى أو مرشدى شيخ لم يشاهد هذا المكان فى حياته ، ولا يعرف أحدا قد رآها قبل ذلك ، وبالطبع عرفت ذلك بعد ساعات سرناها ، وتم تحديد هذه الأطلال التى كان من الصعب التعرف عليها ، وقمت بالتقاط بعض الصور لها فى الحال • وعلى ارتفاع ثلاثة أقدام شاهدنا أسوارا من الحجر الجيرى ، تحيط بها أبراج هندسية ، وهناك قمة غير مستوية ، وهناك على السطح شكل صخرى جميل يمثل الفنجان المقلوب ، ربما يعود الى العصر البرونزى الوسيط ، ورأينا أنظمة للصرف وسدودا وقنوات على الممرات ، وخزان مربع الشكل •

وبعد أن قمنا بجمع العينات الصخرية ، رأينا أنه لا جدوى من البحث هنا ، وأن تلك الأطلال والخرائب ليست لها أى معالم ذات قيمة جديدة •

ويقال ان هذا المكان كان ينتمى لفارس القديمة ، ولكن الأطلال عربية ، وقد قال الشيخ سرحان بن سعيد ، ان عمرو بن العاص أتى هنا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لنشر الاسلام ، وطالب الولاة بالامتثال ، وقال للتجار « اتركوا الضلال ، وخافوا الله ورسوله » •

وعند العودة للمقر قال الشيخ صقر ، ان واليا جديدا سوف يحضر ، وهو الشيخ على بن حمد ، من قبيلة ملوى ، وقد خدم هذا الشيخ فى

مناطق عديدة فى عمان ، وقد تكرم بالسماح لى بالحصول على ثلاثين عاملا ، واتفقنا على مرتباتهم ، وجاءوا فى الصباح ، وتم تقسيمهم الى فريقين ، لكل منهما رئيس ، وكان من المتفق عليه أن يأخذ كل من « روى وساندى » ثمانية عشر من العمال ، ليبدأوا العمل فى تل صحار ، الذى لم يكن يبعد كثيرا عن المقر •

وكان التراكم فى صحار يمتد لميل على الساحل ، ويرتفع فى الحال وراء رمال الشاطىء ، ولكنه لا يتسع لسوى ربع ميل ، والتل الرئيسى ذو أبنية كبيرة ، بأسوار متدرجة ، تحيط بأكواخ صنعت من النخيل ، وهناك ضوء فى الجزء الأسفل من التل ، وآخر يفصل التل الرئيسى عن البقية ، يحيط به خندق ، والجزء الشمالى ليس به سوى بعض المقابر حديثة العهد ، عدا الخط الضيق للأكواخ على امتداد الشاطىء ، وهناك عدة مداخل تنفصل عن البحر بسواتر رملية ، وقد كانت فى الماضى موانىء للقوارب القديمة ، وكان الممر الى البحر مفتوحا فى العصور القديمة • ثم أخذت أنا وبيل والدكتور كروز الجزء الآخر من العمال ، وبحثنا فى وادى المينة حيث عصرنا على عظام وجماجم ، وتأكدنا من وجود مقابر هنا •

وقد كانت هذه المدينة مزدهرة ابان الحكم الفارسى ، قبل دخول الاسلام ، ودمرها الله عندما رفض الفرس الدين الاسلامى ، وبالتأكيد ان تلك المقابر اسلامية ، حيث ان حجارتها غير مستوية ، وليس بالجزيرة ما يشابهها ، ولم أر بالجزيرة العربية مكانا مشابها لها ، ولابد أن عمان قديما قد شهدت اناسا عظاما ، شيدوا التاريخ بمجهودات هائلة •

ثم قمت أنا وروى بالبحث فى المنطقة الشمالية خلال حصن فارسى قديم فى طرف المدينة ، وبعد أن تجولنا لساعات ، اصطحبت الشيخ شاكر ، وأخذت منه تصريحا بالحفر ، ثم أمر ساندى رجاله بالعمل قرب سور

الحصن ، وفى ركن من مبنى كبير على أطراف الخندق المغطى بالرمال ، وعلى عمق خمس عشرة قدما ، ثم توقف العمل ، وانهار جدار الخندق ، وظهرت الشقوق حاملة الينا الحفريات •

ولعل أعظم مزايا الحفر الجيولوجى هو أنه يتيح للباحث التعمق أكثر فى شخصية الناس والالمـام بالعادات والتقاليد ، وقد أفادنا عمل دكتور كروز بالطبع فى التعرف على الطب المحلى فى عمان •

وقد بين « ايلول شيلر » من قبل ، عندما تحدث عن النظام الطبى فى الشرق الأوسط ، أن الاصابات والأمراض كلها حالات عضوية • وأنهـم لا يمرضون فقط ، ولكنهم يسقطون ضحايا فى وقت قياسى ، بسبب الأعمال الشاقة التى تسبب المرض ، أما عن الطب فى الدين الاسلامى ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول ما معناه اذا سمعت عن الطاعون فى مكان فلا تذهب اليه •

ويقول الدكتور بول هاريسون : ان العرب لديهم قابلية شـديدة للعلاج ، والقرآن الكريم يحثهم على ذلك ، ورغم ذلك فان علم التشريح لا يجد قبولا عند العرب ، وان كانت الأمور قد تغيرت كثيرا الآن •

فقد كان يقال قديما ، ان الروح لا تصعد فى الحال عند الوفاة ولكن بعد فترة ، ومن هنا كانت المعارضة الشديدة للتشريح ، وأنه عمل قاس وغير انسانى ، وأنه لابد من احترام الميت حتى ولو كان فى بطنه لؤلؤة •

ويدل الطب المحلى فى الجزيرة العربية على عدم المعرفة ، كان علاج الجروح هو الكى بالنار ، فمكواة صغيرة توضع على الجزء المصاب كان يتم وصفها للملاريا ، والحالات السيئة لمرض السل ، حيث يضعون قماشا فى فم المريض ، وجمرة نار على الجزء المصاب ، وعندما يفشل

الكى تكتب كلمات من القرآن الكريم لكى يبلعها المصاب ، ويتم تحصين المريض بحجاب قرآنى ، وكان هذا الحجاب يستعمل كعلاج للكثير من الأشياء ، ولكى يحفظها من الحسد بالعين الشريرة ، فقد يوضع للجمال ، وقوارب الصيد وكل شىء ، فهناك عين الشيطان ، وعين الحسود ، وعين الحقود ، لذلك فقد كانوا يجعلون الأطفال يرتدون الملابس البالية عند الخروج أمام الناس خوفا من الحسد ، والأطفال لهم قيمة عظيمة لدى العمانيين ، والولد فى الصغر يرتدى ملابس فتاة حتى لا يعرف .

ويقال هنا ان الكوليرا تأتى نتيجة للاستحمام أثناء اكتمال القمر ، وأن الكوليرا تسببها الريح الصفراء ، أما الملاريا فيعتقد أن سببها هو التمر غير الناضج ، أو الشرب من الماء الملوث ، والجدرى أحد الأمراض الخفية فى مناطق العمران من الجزيرة العربية ، حيث تسببه الأوبئة ، ويتم عزل المريض ليحيا أو يموت ، ويتم تقديم الطعام للمريض بحذر ، وقد أوصد أحدهم بيته على أحد أولاده وتحدى أن يأتى اليه أحد ، وكان يرفض تلقيح ابنه ضد الجدرى وكان يقول ، ان الله وحده هو القادر على شفائه .

وفى عدن القديمة عرفت الحصبة ، ولعلاجها هناك كانوا يغطون جسم المريض بالكحل ، ويتم عزله فى حجرة مغلقة لمدة أسبوعين ، ويتم كسر البيض على الباب حتى لا تدخل الشياطين .

ورغم حث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على النظافة وأنها من الايمان ، فانهم لا يعملون بهذه الحكمة . وللحق أقول ، ان الطب هنا أهم من التعليم ، وقد كان الدكتور « ويل » يعالج فى مطرح الآلاف من المصابين بالعمى فى عمان ، وكان السبب الرئيسى لهذا هو الرمد الحبيبى ، ثم مرض الجدرى ، ولكن لا شىء أجمل من رؤية الفرح عند الشفاء ، وقول العربى « الحمد لله » .

ومنذ اليوم الأول فى صحار بدأ « جاما » العمل مع الدكتور « كروز » فى اجراء العمليات ، وتكرم الدكتور « كروز » باتاحة الفرصة لى لاعداد تقاريرى •

وقد ذكر الدكتور كروز أنه لا توجد أية علاقة للطب الحديث فى مسقط ومطرح ، وأن العلاج هنا علاج شعبى ، وأن أمراض الأطفال تنتشر بكثرة هنا ، وفى عمان تلاحظ أمراض العيون بصفة خاصة ، أما الأبحاث على ضغط الدم فقد وجدناه عاديا ، حيث يندر استخدام الملح فى عمان ، وهو يستخدم بصورة أقل كثيرا من العرب ، وقلة الملح تجعل ضغط الدم عاديا فى هذه المناطق •

وقد شاهدنا الكثير من الاصابات الحديثة ، وان كانت الاصابات قد قلت نتيجة للرعاية الطبية •

والملاريا تنتشر فى الواحات ، ولدى الناس هناك ، للحقيقة ، رغبة فى المعاونة والعلاج ، ونظام الدفن هنا هو الغسيل ، ولف الجثة فى أثواب غير محاكة ، ثم الدفن ، ويستمر العزاء لمدة ثلاثة أيام ، وتمنع النسوة من الصراخ ، والبكاء ، والذهاب للمدفن •

ونسبة الاصابة بمرض الزهرى كبيرة ، ويتم علاج هذا المرض بواسطة حمامات الزئبق ، وان كان هذا العلاج يعجل بالوفاة ، لوجود كميات من السموم فيه •

هذه هى الحالة الطبية هنا ، ولابد من الاهتمام بها الى أقصى درجة ، حتى تذهب الأمراض الى غير رجعة •

الفصل الخامس

ارادة الله — القضـاء والقـدر — العبودية — الصيد — كميـات السردين الهائلة — الديـن هـو القـانون — العبيـد — محمـد صلى الله عليـه وسـلم والعبودية — تجـارة الرقيق — سـحار اليـوم

ذات مساء أخذت أنا وبيل الفريق ، وقمنا باستكشاف على الساحل ، فى اتجاه الشميلية ، أو طرف عمان ، وهى شبه جزيرة على ارتفاع كبير ، تتكون من صخور مدببة وتعرف برأس مسندم ، فى صخور سوداء غير مستوية ، تفصل المياه الباردة العميقة لخليج عمان عن الخليج ، وفى الوقت الحاضر تعد هذه البلدة الجبلية « رؤوس الجبال » موطن الشحوح الذين لا ينتمون الى أصل عربى « بل الى الفرس مثلا أو أواسط آسيا » ويبلغ عدد هذه القبائل حوالى الأربعة آلاف نسمة ، تعيش فى أكواخ ، أو فى مساكن نحتت فى الصخر ، وتعيش على الصدف أو صنع الأكواخ ، وحالتها غير مرضية .

ولم نكتشف مدنا قديمة ، ولكننا وجدنا بقايا قلاع رملية ، لا حصر لهـا ، تحتـوى على مجموعات من أبو جلمبو ، وبينما كنت أمسـك « أبو جلمبو » واحدا من رجله جرحنى ، وقال لى السلطان معقبا على ذلك ، اننى نلت عقابى من هذا الحيوان المسكين ، الذى هو صديق لجماعات الصيد ، المنتمية لجنسيات مختلفة من عرب ، وزنوج ، وغيرهم .

وفى شاطىء « الباطنة » تصنع شباك الصيد ، ويصل طول الشبكة

الواحدة الى حوالى أربعمائة ياردة طولا ، ولها قطاع فى المنتصف يبلغ اثنتى عشر قدما ، ويتم غزل الشباك غزلا يدويا ، هذا غير فخاخ الأسماك التى تصنع من خشب النخيل ، بقطر يبلغ أربعة أقدام ، أو أقل قليلا ، والمياه هنا مليئة بالدرافيل والسلاحف البحرية « بركودا — حصان البحر — كلاب البحر — والسردين » • ويتم تصدير كميات هائلة من كلاب البحر للصين ، ومع ذلك فمعظم حصيلة صيد السردين — من السردين الصغير « سردينلا » ، والذى يجفف بعضه ، ويستخدم كغذاء الجمال ، ويتم خلطه مع بعض المواد ، كى يستخدم كسماد ، ويعتبر هذا السردين هو المحصول الأول على امتداد المناطق الرملية غير الباطنة ، وسواحل وسط ظفار •

ويستخدم الصيادون الهورى ، وهو قارب صغير ، من خشب معين ، يتم استيراده من ملبار ، على الساحل الهندى • وهناك نوع من شباك الصيد يلقى من مؤخرة القارب ، ويمتد على مسافة خمسين ميلا ، وهو مثال رائع لكيفية التكيف مع البيئة ، فى نطاق الامكانيات المتاحة ، من أجل متطلبات الحياة ، وتصدر عمان حوالى أربعمائة ألف طن سنويا من الأسماك ، من اجمالى حصيلة الصيد فى العام ، والبالغ مائة ألف طن •

وفى الصباح أرسل لنا الشيخ صقر هدية ، عبارة عن كمية من البرتقال ، قبل أن يرحل فى الصباح التالى ، ليقدم تقريره للسلطان ، ولابد هنا أن نذكر أن العامل الانسانى هو أهم عامل فى التعامل مع العرب •

ثم تلقيت بعد يومين باللاسلكى رسالة من السلطان ، هذا نصها :

« شكرا لرسالتك •• مسرور لنجاحك وتقدمك •• وأتمنى لك رحلة ناجحة باذن الله » •

ثم توجهت الى الوالى ، كى يصرح لنا بتصوير القصر فى الصباح ، كذلك الأطفال فى المدرسة ، فوافق ، ثم أخبرنى أن هنـاك أمرا هاما يريدنى لمناقشته •

ويبدو أن الشيوخ المحليين قد اشتكوا من طول مـدة تشـغيلى للعمال ، وأنه لابد من تغييرهم أسبوعيا ، حتى يستفيد الجميع ، فكان ردى أن العمال أصبحوا الآن ذوى خبرة ، وأنهم يتقدمون فى عملهم ، ولا يمكن أن يقفوا عند ذلك الحد •

وفى الصباح التالى اتجه « بيل » الى مناطق الصرف ، وراء صحار ، حيث أحراش كثيفة من الشجيرات ، التى يبدو بعضها غريبا ، حيث ان الأشجار التى تغطى هذه المناطق من السهل ، والتى تعلو الأرض بمسافة ثمانية أقدام تبدو وكأنها مقصوصة من الأجزاء السـفلى ، حيث تأكل الجمال أوراق هذه الأشجار ، التى تصل اليها أعناقها •

ثم عاد « بيل » قبيل الظهر كى يصور عمل الوالى داخل الحصـن القديم ، حيث يجلس بجوار القاضى الشرعى ، وينصت باهتمام الى ما يعرض من قضايا •

والاسلام هو أصل القانون المعمول به فى عمان ، وهو الحكم الأول مع أحد المذاهب الاسلامية « مذهب الامام أبى حنيفة » لأن علم القانون هو معرفة الحقوق والواجبات ، والدين هو القانون ، والقانون هو الدين فهما يجريان فى كتلة غير منفصلة والأساس الحقيقى للشرع هو القرآن ، والعـادة من خلال الأنظمة الشرعية للجزيرة العربية تعتبر ظاهرة ،

تستحق الدراســـة ، فالقانون هو القانون السماوى ، حيث ان الاسلام دين متكامل يعـــالج كل أمور الحياة ، وكل أوجه العلاقات الانسانية •

ووفقا لمتطلبات المجتمع العربى ، فقد حدد الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، القانون العرفى الذى يهدف الى تقديم المذنبين للعدالة وحماية الضعيف ، والحفاظ على حقوقه الشرعية ، وبالاعتماد على ممارسة الرسول عليه السلام الشريعة فى المدينة المنورة تصح الرؤية •

وقد جاء فى سفر التكوين « ان من يسفك دم انسان سيأتى من يفعل به ذلك » (من قتل يقتل ولو بعد حين) وفى الحديث الشريف « العين بالعين ، والسن بالسن ، والبادى أظلم » ، فى قانون التـــوراة المطلق « الموت للموت ، والدم بالدم ، والانتقام من مقترف الجريمة » وعلى النقيض من ذلك فان الاســـلام يعـــالج عقوبة الجريمـــة على النحـــو التالى :

رجل لرجل — عين لعين — سيدة لسيدة • وهناك الدية ، مع أن الاستخدام العمانى « الاعتذار — سحب الدية — اذا قرر القاضى ، طبقا للحادث ، وحالة الأشخاص محل النزاع » ، حيث ان الرسالة الاسلامية والقانون العرفى قد اتصل به مفهوم أوسع للتعويض الالزامى للمجنى عليه ، وحسب مفهوم الاباضيين للعدالة فان واجب كل مسلم ، أن ينصح الآخرين لعمل الخير ، ويمنعهم من عمل الشر ، والكل يتســـاوى بغض النظر عن اللون أو الجنس ، المكان الأعلى للأكثر تقوى « ليس لعجمى فضل على عربى ولا لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى » •

والقانون يطبق على كل مسلم حتى ولو لم يعلم به لتقصيره فى طلب العلم • ومصادر القانون محددة ومنتقاة بعناية ، ويعد الانحراف عن المصدر الحقيقى إثم يستحق عذاب الجحيم •

ويسير الاباضيون على القرآن والسنة ، وما يستخرج منهما ، عن طريق ائمتهم ويسيرون على منهج أبى بكر ، وعمر بن الخطاب ، فى الخلافة ، والالتزامات الشرعية ترتبط بالأفكار الدينية ، وأكثر الأنظمة الشرعية مرونة اليوم هى الموجودة فى الجزيرة العربية ، والتى تصل حتى أفغانستان ، ونيجيريا ، والهند ، ومعظم العالم الاسلامى ، وأما المأخوذة من القانون الغربى « الاجرام — العقوبات — المدنى » وما الى ذلك فهى اشتق من القانون الرومانى •

وكما قال السلطان ان ما يحلو فى عين فرد قد لا يحلو فى عين الآخر ، ولكن هناك أشياء سيئة فى نظر كل الناس •

وذكر لنا والى صحار ، أن القاضى هو الذى ينظر فى النزاعات ، والقضايا الاجتماعية ، والمدنية « طلاق — زواج — ميراث » وليس السلطان أو وزير الداخلية ، ويتم رفع حالات القتل دائما الى السلطان للنظر فيها •

ويعتبر الوالى اسماعيل بن خليل ، والى مطرح ، هو الوالى الأول فى ساحل الباطنة كله ، وهو لا يرأس القاضى من الناحية القانونية ، وقد لحق بخدمة السلطان عام ١٩٢٨ كمعلم من فلسطين ، ثم عين واليا لمطرح عام ١٩٣٩ ، وهو حلقة الوصل بين ولاة الباطنة وبين السيد سعيد بن أحمد وزير الداخلية ، المسئول أمام السلطان ، عن كل الشئون الداخلية لعمان ، التى تضم « ٣٣ واليا » وهناك مجلس البلدية ، الذى يتكون من ثمانية عشر عضوا ، ورئيس ، يعينه السلطان ، ويمثل كل مجتمعات مسقط ومطرح • •

ويمول المجلس الضرائب الجمركية ، وضرائب ، وايجارات المحلات

ورسوم تسجيل السيارات ، والرخص ، وله ميزانية سنوية ، وينعقد مرة كل شهر ، ويخضع لقانون السلطنة الخاص بالمجالس البلدية • وأثنـــاء غياب السلطان ينوب عنه عمه ، السيد شهاب بن فيصل ، الذى يكبره بست سنوات ، ومع ذلك سواء كان السلطان حاضرا أم غائبا فان عمـــه يضع فى يده أمور المالية ، والجيش ، والشئون الخارجية ، وتعتبر حكومة عمان امتدادا لشخصية السلطان •

وقد صحبنا رئيس الجند التابع لوالى صحار ، لزيارة مدرسة خارج الحصـــن ، وشاهدنا سيدة عجوزا ترتدى برقعا ، وقام بيل بتصويرها بعد اقناعها ، ثم سار كل شىء على ما يرام • وكان بالمدرسة ستة وعشرون تلميذا ، بين بنين وبنات ، لكل مجموعته الخاصة ، ويجلس كل تلميذ على الأرض فاتحا المصحف الشريف « وهنا المعرفة التى لا حدود لها •• معرفة الله وتعاليمه » •

وللحق فالجزيرة العربية — فى الواقع — عالم كبير لا يسعه كتاب •

ويركز السلطان دائما على أن يبين لشعبه أن العلم ، والتكنولوجيا والمعرفة يمكن أن تزيد الرخاء ، وترفع مستوى المعيشة •

وهناك نظامان للدراسة فى مسقط ومطرح ، النظام الأشمل أو الأوسع وهو يتمثل فى المدارس الحكومية •• مبان جديدة •• والتدريس باللغة العربية خلال ست سنوات •• واللغة الانجليزية فى السنوات النهائية •

وتهدف الدراسة لمد الحكومة بالخبرات ، والكفاءات اللازمة من الشباب وهناك مدارس لتعليم القرآن •

وهناك اتجاه مشجع نحو التعليم والتثقيف الذاتى ، بالاعتماد على

النفس وبدء مرحلة الاستيقاظ نحو العلم ، وكما يقال : « ان أول خطوة للمعرفة هى الشك » •

وهناك الآن تعليم واسع ، بل أوسع مما سبق ، فى العلوم الاجتماعية ، والسياسية ، والعلم ، والأدب ، وهناك الكليات والجامعات التى تعمل على رفـــع مستواها وتحســـين كفاءتها ومحاولة اللحاق بالركب الغربى ، وان كان من غير الممكن أن يرتفع مستوى مؤسسة تعليمية دون ارتفاع مستوى مدرسيها •

ونحن فى الغرب ندين بتقدمنا لمدرسينا ، واذا ما توفر للعرب نفس التقدم فى التعليم فلن يقلوا عنا فى شىء ، وعلى أية حال فقد كان العــرب رمزا للحضارة ، بينما كنا نحن لا نزال فى ظلمات الجهل فى العصــور الوسطى •

ولكن لمــاذا فقد العالم العربى زعامته الفكرية ؟ وأين البحث المبكر ، والنشيط عن المعرفة والحقيقة ؟

لقد وقف كل هذا بسبب عدم فهم العقيدة ، حيث ظن العرب أن التجديد قد يدفع بهم الى الانحراف عن طريق الحق • كما أن هناك الايمان الشديد بالقضاء ، والقدر لدى المسلمين ، وهو من أعمدة العقيدة الدينية التى ينشأ عليها الفرد ، ويطبقها على كل أعماله العقلية والجسدية ، وحيث انها تبعث السلام ، وتجنب الندم ، واليأس وقت الشدة •

ويتمسك الاباضيون جدا بالقضاء والقدر ، من وحى أن الله خالق الأشياء •• الخير والشر •• ولا شىء جديد فى ذلك « خالق النور والظلام » ويقول الاباضيون ان الخلاص يأتى من الله ، وليس بالأعمال « لمــاذا نحارب المكتوب ، ان القدر لا يتحول ، والمصير لا يمكن أن نتحاشاه » •• المصيبة

هى رحمة فى كامنها « المصائب قد يكون لها الجنة » أما المسلمون التقدميون فللقضاء والقدر لديهم معنى أكثر قيمة وروعة من ذلك « اعقلها ثم توكل » ويضعون محل كلمة القضاء والقدر كلمة « التوكل » وأن الله يخلق كل شىء والانسان لا يمكنه أن يتصرف خيرا أو شرا .

ورغم الركود الاقتصادى والسياسى الذى يعانى منه المسلمون اليوم الا أن العلاقة بينهم وبين خالقهم متينة جدا ، ويذكرون عظمة الله سبحانه وتعالى باستمرار ، وأنه لابد أن نعترف أن القرون الأولى للاسلام كان بها رجال علم ودين ، ورفعة وسمو ، رجال شجعان ، سعوا فى الأرض وتوكلوا على الله ، وربطوا بين الدين والعمل ، وقاموا بواجبهم على أكمل وجه .

وفى عام ١٨١٧ ذكر الشيخ منصور فى كتاب « العرب فى شبه الجزيرة العربية » أن سكان الجزيرة العربية لهم اعتبار واحترام جدير بالاعتبار ، أما الانحطاط والكسل فهو يعود بمجمله الى طبقة الحكومة والقوانين التى يخضعون لها .

وبينما كان الحفر الذى بدأه « هانيمان » قد أوشك على الانتهاء ، كان من الضرورى أن نوقف العمل ، وفى منتصف يناير قررت أن يستمر العمل يوم الجمعة ولكنهم رفضوا ، وتم التغلب على ذلك برفع المرتب روبية زيادة ، تدفع لأحسن ستة رجال ، نريد أن نستبقيهم للعمل ، وكان هدفنا فى ذلك الوقت المدفن اليهودى القديم ، الذى يقع على بعد ميل ونصف من صحار .

وقد سجل ويلستد فى كتاب رحلات فى الجزيرة المجلد الأول ص ٢٣١ وجود عشرين أسرة يهودية فى صحار ، فى العقد الأول من القرن التاسع

عشر ، وكذلك السلاجقة بعدهم ، ويبدو أن لجوء اليهود الى هذا المكان كان خوفا من بطش حاكم بغداد ، داوود باشا ، وخلال الفترة التى كان فيها الدكتور « جيمس • س جيكار » جراحا فى مسقط ، من عام ١٨٧٠ وحتى ١٩٠٠ ، كان هناك عدد قليل من بنى اسرائيل يعيشون فى صحار ، ولكنهم لا يعرفون أصلهم ، ولا يستطيعون أن يقدموا أو يحددوا تاريخ هجرتهم الى عمان ، وفى عام ١٩٥٨ لم يبق منهم غير المدفن ، وعند الوصول الى المدفن القديم فى جميده كانت هناك مقبرة قديمة للغاية ، وطول الأجزاء المرئية من المقابر حوالى ستة أقدام ونصف ، وعرضها أربعة أقدام من الطوب ، وهناك طوب يغطى نصف المقبرة ، ثم بدأت تظهر فتحات عديدة •

وباستخدام الضوء استطعت أن أرى هيكلا عظميا كاملا فى الداخل ورأيت أسلوبا غريبا لدفن الموتى ، حيث كانت الجثة فى مربع مرتفع عن سطح الأرض ، وبالفحص اتضح أنها جثة لذكر بالغ ، وكانت العظام هشة ، وكانت الأسنان مليئة بالحفر والتجاويف ، وفى خارج المقبرة كانت هناك أسماء يهودية كثيرة ، مثل : موسى ، يوسف ، يعقوب ، مكتوبة بلغة عبرية ، وبدأ العمل فى هذه المقبرة المتآكلة ، ولسبب ما لم يكن هناك أى سطح فوق هذه المقبرة ، وعلى بعد بضعة أقدام للأسفل وجدنا حجرة الدفن ، ثم وجدنا تجويفا ، واتضح وجود هيكل عظمى لذكر آخر ، ووجهه الى الشرق ، وأعد بيل الوجه عاكسا للضوء على المقبرة حتى استطاع أن يلتقط فيلما للهيكل العظمى كاملا •

وبينما بدأ العمل للردم صرخ أحد العمال الزنوج •• الى أين يسير العالم ؟ أنا مسلم أعمل هنا لمدة ثمان ساعات يوميا ، وأحفر فى عظام يهودى ميت ، ثم قال لى بعد ذلك انه سيعمل معى مدى الحياة اذا أعطيته ثلاثمائة دولار وأخذته معى •

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كقدوة حسنة كان له تأثير كبير على هؤلاء الناس فى ذلك العهد بالنسبة لتحرير العبيد ، وقد أعتق عليه السلام عبدا هو « زيد بن حارثة » الذى أصبح ابنه أسامة قائدا لجيش أبى بكر ، وأصبح من أعظم قواد قريش ٠

ورغم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اعتبر ملكية العبد كجزء لا يتجزأ من النظام العالمى السائد ، ووجدها تسود فى ذلك الوقت الا أنه تحدث عنها بكلمات مشددة مؤكدا على انسانية العبيد ، ووجوب الرحمة والعطف عليهم ، والاسلام يقاوم الرق والعبودية ، ويدينهما ، كما أدانتهما المسيحية واليهودية ٠

وركز الاسلام على ضرورة تحرير العبد ، وعلى الثواب الذى سيناله كل من أعتق عبدا ، وقد قال عليه السلام ما معناه ، ان أسوأ الرجال هو بائع الرجال ، وكان الذين رفضوا هذا المبدأ فى العصر الاسلامى هم قساة القلوب فقط ٠ والعبد يتبع ديانة سيده ، ولذلك فكل العبيد فى عمان مسلمون ، وفى معظم الأمثلة نجد أن الاسلام قد قيد العبودية بالقوانين ، واللوائح الدينية ، بحيث لم تعد العبودية هى النموذج المخيف للقسوة والأذى ، الذى يتبع فى مناطق أخرى من العالم ، والعبيد فى عمان لا يفكرون أبدا فى ترك أسيادهم ، حيث يعتبرون جزءا من الأسرة ، وتجمعهم روح الاخوة الاسلامية التى لا تفرق بين السيد وعبده ، ولذلك ربما يأكلون فى طبق واحد ، ويرتدون نفس الملابس ، ويقول العمانيون ان العبد هو عبد سيده ، لكن فى حالات أخرى يكون مثله ، ولكن هل يمكن للعبد أن يطلق زوجته الأمة فى عمان ؟ الاجابة بالنفى لأن هذا يتوقف على السيد ٠

واذا أراد العبد أن يترك سيده فلن يرجعه أحد ، ومنذ ثلاثين عاما سرق أحد تجار الرقيق — وكان سيىء السمعة — عددا كبيرا من

الغلمان والبنات من ساحل مكران ، وسافر بهم الى ساحل الباطنة ، ليبيعهم هناك فى السعودية • وهرب عبد منهم وأبلغ الأمر للسلطان فحررهم جميعهم فى الحال ، واذا كان قد تم القبض على البائع لأمضى اقامة طويلة فى سجن السلطان •

والقرآن الكريم يحث على تحرير العبيد ، ويقال ان الخليفة عثمان ابن عفان رضى الله عنه قد أعتق ما يربو على ألفين وأربعمائة عبد أثناء حياته ، وقال : لا يمكن أن أتحمل هذا الرق ، انه يرهق ضميرى ، أن احتفظ بالعبيد « من يعتق عبدا مسلما أعتقه الله من النار » •• وتحت لواء الاسلام ، فعندما يعتق عبد فان السيد يعطيه ورقة أو شهادة أمام الشهود بأنه أصبح حرا ، وهناك أمثلة كثيرة لسيد يعتق بنتا ليتزوجها ، وهذا يشتمل على حكمة عربية ، مؤداها أن العبد عندما يتزوج من امرأة حرة فان أولاده يصبحون أحرارا ، ولكن الأمة تلد عبيدا •

وفى نوفمبر عام ١٩٦٢ أصدر رئيس الوزراء السعودى الجديد ، الأمير فيصل ، قرارا بالغاء نظام العبيد فى البلاد •

وقصة بلال ، ذلك العبد الأسود ، ذو الصوت الجميل ، والذى جعله الرسول عليه الصلاة والسلام أول مؤذن فى الاسلام ، وكان أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، هو الذى أعتقه ، وقد كان بلال فى مناسبات عديدة يتقدم الرسول عليه الصلاة والسلام حاملا الرمح ، وكذلك أسامة بن زيد بن حارثة الذى قاد جيش أبى بكر ضد الرومان ، وكذلك قطب الدين مؤسس الامبراطورية الاسلامية ، وكان هو الآخر عبدا وعندما كان عمرو بن العاص على وشك أن يفتح مصرا ، أرسل عبدا أسود لمناقشة شروط الاستسلام البطريرك المسيحى ، الذى قال « ابعدوا عنى هذا الأسود لا أريد أى مناقشة معه » وعندما علم أن الرجل الأسود

هو أحب الناس لدى عمرو فاتح مصر اندهش لذلك ، وقال « حسنا ، اذا كان الأمـر كذلك ، فلابد أنه يتحـدث بلطف ، حتى لا يخيف مستمعيه البيض » •

وبذلك استطاع الاسلام أن يجعل العبد ذا شأن كبير •

وقد قيل عن العبودية فى عمان « ان الدين يقرها ، والنظام الاجتماعى يعتمد عليها ، ورفاهية العبيد أنفسهم تتطلبها » •

ومع ذلك فان يوما أو ساعة فى الحرية لهى أثمن من العمر كله فى قيـود • وبينما الأعـوام تمر يقل عـدد العبيد المولودين ، يوما بعد يوم ، وسيأتى ذلك اليوم السعيد ، الذى تتغلب فيه انسانية الانسان على اغتصاب حقوق الانسان •

« فلا يعد رجلا صالحا من يتحكم فى رجل آخر ، والعبودية كلها سواء كانت فى أى مجتمع ، فى مرحلة من مراحل تطوره ، سـوف تموت وتنتهى ، سواء فى عمان أو فى بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية ، لأن العبودية تحمـل فى طياتها الظـلم ، وهو الشىء القبيح فى الطبيعـة الانسانية » •

« أليس الرحم الذى حملنى كان يمكن أن يحمله •• أليس الذى خلقنى وخلقه واحدا » •

الفصل السادس

عمال صحار — لغة الملائكة — لورانس العرب — الحماية البريطانية — دبى النشطة — البحرين — امبراطورية الخليج — القراصنة واللؤلؤ •

حرصت ورفاقى فى كل رحـــلاتى أن أتعمق لبعض الشىء فى من يعملون معنا ، من العمال العمانيين العاملين فى الحفر ، وكان من الســـهل أن نتمازح فى كسل بعض العمال ، ولكن بعضهم كان يقول : من الصعب أيضا أن أعمل تحت هذه الظروف القاسية ، مقابل أربعة شلنات يوميا ، حتى ولو شجعنى البعض على عمل ذلك ، وصعب أيضا أن أعمل اذا دهمنى المرض ، وقد بذلنا قصارى جهدنا لتجنب هذه الحالة المعنوية التى يمكن أن يصل اليها العمال •

ومن خلال ملاحظاتى فى رحلاتى الى المنطقة العربية وجدت أن العربى يعمل بجد ونشاط ، ورغم أن هذا العربى لا يحصل على مقابل هذا العمل ، ولكنه يتسم بطموح كبير يمكنه من أن يحقق الكثير لولا الحالة الاقتصادية التى تمنعه من أن يحقق ذلك حتى ان الفرد الواحد ، ذا الطموح البارز ، لا يستطيع أن يهرب من طفولته المقهورة لأنها تطارده •

وديناميكية المجتمع الأمريكى والأوربى ، الذى استغرق الكثير من الأجيال كى يتطور ، بدأت مع المهاجرين الأوربيين الأوائل ، الذين يمثلون أكثر أفراد مجتمعاتهم طموحا فى ذلك الوقت ، والمحظوظ من العرب هو من يصرح له بالسفر الى أمريكا ، فذلك الذى يعانى من حالة اقتصادية سيئة فى بلاده يدخل أمريكا بنفس طاقته ، فيجد النجاح ، كما لو كان من

أصل أمريكى • وربما يكون نفس الطموح هو المسئول الأول عن الفساد فى المجتمع غير الغربى •

ويتحدث جون ماولو عن ايران ، فيفسر لنا ذلك بقوله : فى الواقع ، ان شعب أوربا وأمريكا عادة يدفع الضرائب ويطيع القانون فى الكثير من الحالات مثل تراخيص البناء ••• الخ ، لأن الناس أقل فسادا ، وأكثر خوفا على الشعور العام ، ولكن لأن ميكانيكية الحكومة ذات فاعلية كبيرة ، فهى تؤكد للناس أنهم لن يهربوا من الضرائب ، ولن يستطيعوا عصيان القانون ••• ومع ذلك فهم أحيانا لا يفعلون ذلك •

وفى المساء بعد أن توقف ساندى عن العمل بفريقه وصلته رسالة من أحد من عماله ، الذين شعروا بخيبة الأمل لاعفائه من عمله ، وكان من المفروض أن يلحق هذا العامل بالفريق فى اليوم التالى •

ومن خلال اتصالنا بالناس عرفنا أنهم أكفأ شعوب الشرق الأوسط ، وفى مناطق أخرى من الجزيرة العربية مثل مصر والأردن يميل العمال الى المشاحنات والشغب والتمرد ، وقليلا ما يقومون بالعمل الأمثل ، ولكن عمال صحار يحبون العمل ، ولا يحبون النقاش أو الجدال ، ويدخرون قواهم لعمل اليوم التالى •

وكى نكون أكثر دقة فقد تحدثنا مع العمال ، ولم يكن بينهم أعزب واحد ، وهذه عينة من الذين أجرينا معهم بعض الأحاديث الخاصة •

١ — جمعة بن عبد الله ٢١ عاما — متزوج — يعيش فى كوخ بسيط • ماتت زوجته الأولى أثناء الولادة ، بعد فترة من الزواج ، وتوفيت فى سن ١٥ عاما ، ثم تزوج من أخرى ، وأنجب ولدين •

٢ — محمد بن سيف — ٢٠ عاما — يسكن فى منزل — يملك مائة وخمسين شجرة — متزوج فى سن ١٥ عاما •

٣ — جمعة بن فرحان — ولد عبدا منذ ٣٠ عاما ، تم شراؤه فى سن التاسعة — هرب بعد ١٤ عاما ، وتم تحريره فى مسقط ، تزوج منذ ست سنوات ، له ولد وبنت •

٤ — أحمد بن صالح — ٢٥ عاما — يسكن فى منزل ، ويملك بقرة ، وتزوج منذ أربعة سنوات ، وأنجب ولدين •

وتعرضت صحار بموقعها البحرى لتأثير اللغات الأجنبية ، فلكى تنادى على العمال لمزيد من الجهد يقول رئيس العمال بالهندية « شوباش » و « برافو » وبين عشرين عاملا كان هناك عامل واحد فقط من مسقط ، من أصل عربى يعرف قبيلته الأصلية ، ومعظمهم من البلوش ، بينهم ثلاثة أو أربعة من الفرس ، والباقى من افريقية ، واللغة الشائعة هى اللغة العربية ، ويتحدث البلوش لغتهم الخاصة فيما بينهم •• وهكذا فلغتهم خليط من العربية والفارسية والبلوشية •

واللغة العربية تنتمى الى اللغات السامية ، وقد استطعنا أن نميز الكلام الأصلى والواضح بمرونة كبيرة ، وباستخدام قاموس كبير ، ذى قواعد ضخمة ، وكلمات كثيرة للتعبير عن الأفكار الفلسفية ، واللاهوتية والعلمية ، فى حالات عليا •

واللغة العربية تتميز بدقة ملحوظة ، وهى مليئة بمصطلحات جيدة ، تعبر عن العواطف والأحاسيس ، وفن الخطابة ، وقد استعارت اللغة الانجليزية مئات الكلمات من اللغة العربية ، وقد تعرضت اللغة العربية أكثر من اللغات الأخرى لمصير الجنس البشرى ، وتعدد حدود الأرض ، وتوسعت

فى المعـــانى أكثر من أية لغة ، وليس هناك كتاب فى التاريخ أو الحضارة يعـــادل القرآن الكريم ، وقد قال الباحث العربى « محمد دميرى » •• الحكمة توجد فى ثلاثة : الفرنجـــة • رؤوس اليابانيين • واللســـان العـــربى •

واللغة العربية لها روعة خاصة بكلماتها ، لا تضاهيها أية لغـــة أخرى فى التعبير عن العواطف ، لأنه اذا كانت اللغة هى مقـــر الروح ، فان اللغة العربية هى المنزل والتمثال ، الذى يرتدى أفكارا مشرفة فى كلمات قوية ، ويعبر العربى عن نفسه فى حكم ، وجمـــل ، وتشبيهات رائعة ، تعبر عن طلاقة اللســـان •

وفى عام ١٩٠٣ كتب الكولونيل أ • س • جاكار ، فى مقدمـــة قائمته النادرة والقيمة للحكم والأمثال العمانية يقـــول : حتى ان الباحث فى العلاقات السببية ، لا يمكن أن يلاحظ هذا الاستخدام الشامل والواسع الذى يقوم به العمانيون ، فى أقوالهم المأثورة ، وفى محادثاتهم ، ولا يمكن أن يمر دون ابداء الاعجاب من السهولة التى يستخدمونها بهـــا ، عندما تدعو الحاجة ، وأروع من ذلك أن المبادىء الأخلاقية تلقن عن طريقها ، ويمكن اعتبارها جزءا من تراث الجنس البشرى منذ عصور بعيدة •

ولاحظ « ويلستد » أن العرب لا يتحدثون الا بأن يجعلوا حديثهم يشتمل على مثل هذه المعـــانى ، واللغة العربية عند العرب هى لغـــة القرآن ، ولغة الوحى ، والالهام الذى ينزل على الانسان ، وهى اللغـــة الأم ، ولغة الجنة ، وهى التى سيتحدث بها الله سبحانه وتعالى ، وسوف يحكم بها العالم ، وهى لغة الملائكة ، وعناصر الجمال فى اللغة متعددة ، ذات قاموس ، ليس له حدود ، وهى غنية بالمترادفات •

وفى الوقت الحاضر تمثل اللغة العربية الاختــلاف الرأسى ، الذى يعتمد على الطبقية الاجتماعية ، والاختــلاف الأفقى الذى يعتمد على الفصل الجغرافى •

ويقول الغرب : ان الاختلاف والتطور اللغوى للعربية هو نتيجة اجتهاد كبير ، لأنها من أصعب اللغات فى العالم •

ويقول « بان فالكونر » عضو البعثة اللغوية ان القواعد النحوية العربية يجب أن ترتبط بقوة لدى الدارسين ، لأنهم أحيانا يلقون بهــا على الأرض ، وهناك مثل رائع وهو لورانس ، وكيف أتقن العربية ، وتنقل وسط العرب ، دون تمييز كعربى ، وقد تحدث مع الكثيرين عن كيفيــة اتقانه للعادات والتقاليد ، وكيف أنه يستطيع أن يتحدث بالعربية عندما يريد ، وكيف استطاع أن يتجول وسط العرب كشاب عربى ، أو كشاب من طرابلس ، ولكن ذلك لا يعنى أن الأجانب لا يستطيعون تحدث العربية مثل لورانس ، فالكولونيل « ج • ايتشمان » كان ملحقا انجليزيا ، وكان واحدا من مكتشفى الجزيرة ، وكان يتحدث العربية كأهلها •

وذات مساء ، دعانا الشيخ هلال بن سلطان لزيارة قريته ، الخابورة على ساحل الباطنة ، وبينما كان « كروز » يعالج ابن الشيخ الصــغير من العمى فى احدى عينيه ، تحدثت أنا والشيخ عن أطلال وخرائب المدن القديمة ، وقد ذكر مكانا على بعد أربعين ميلا من الحاجر ، به كميات كبيرة من الطوب المهشم فى كل من الجبال والى أسفل فى السهول ، ورغم العروض الرقيقة لضيافتنا فقد أرجأت ذلك الى زيارة أخرى •

وفى الصباح بدأنا نعد للرحيل قاصدين الشارقة ودبى ، وقد قررت أن أترك روى ، وعلى ، فى صحار لكى يستمرا فى البحث أثناء غيابى ،

وفى الطريق توقفت عند قصر جيش صحار حتى اتصل بالسلطان ، وبالاضافة الى فريقنا (د• كروز ، وجاما ، وساندى ، وأنا) كان معنا عمانيون أعارهم لنا السلطان وهم (عبد الكريم ، وطالب بن سلطان) •

وخلال الأربعة وأربعين ميلا الأولى كانت الرحلة صورة من رحلتنا من مسقط لصحار ، وأمطرت السماء فى الصباح ، وكانت الأمواج عاليه وبدأت الشلالات الجافة تمتلىء وتشمل وادى نبر ، وتمر بصعوبة فى الصخر وعلى مزارع أسماك فى لوى ، وشناص ، والمرير ، وتتكون هذه الأماكن من نفس أكواخ النخيل فى الباطنة ، ورغم مرورنا بها الا أننا لم نفحصها جيدا ، وتسيطر على كل من لوى وشناص قلاع خربة من أيام الازدهار الماضية ، وفى يناير عام ١٨١٠ تقابلت قوات السلطان سعيد الكبير والانجليز فى جانب من حصن شناص ، وهناك أمثلة رائعة وبطولات مجيدة ، ترويها أطلال هذا الحصن •

وبعد طعام جيد عند وادى أسود عدنا للجبال ، وتتبعنا وادى القور والأراضى هنا تبدو وكأن نموها قد توقف ، والمكان ملىء بأشجار السنط ونباتات الطرفا ، والدخن وأشجار النخيل ، والحمام الطائر ، فى الحال أرسلنا تحياتنا الى مكتب جمارك السلطان •

وعندما تسلم أحمد بن نوروك خطابى من السلطان قبله ثم وضعه على جبهته ، ثم ذهبنا عند أحمد الذى أكرم ضيافتنا على أكمل وجه •

والنظر من أعلى وادى القور يذكرنى بشبه جزيرة سيناء ، فالجبل عار ملىء بسدود جيولوجية وأبواب ، وبين قرية حميلات وبين جبل القور فحصنا الأطلال الصغيرة التى تعرف محليا بالخروص ، وشاهدنا طوبا صغيرا جدا ، ولم يكن للبحث قيمة كبيرة تذكر هنا فى هذه البقعة المليئة بالصخور •

وتمتد عمان القديمة الساحلية من شبه جزيرة قطر عبر الخليج الى رأس الخيمة ، وتعبر خليج عمان لمسافة ثلاثمائة وخمسة وعشرين ميل ، ويعرف بساحل القراصنة ، وأصبح هذا الساحل ساحلا مسالمـا عندما قام الشيوخ فى القرن التاسع عشر بهدنة مع حكومة الهند — الحارس القوى للخليج فى ذلك الوقت ، والحاكم الذى يفض المشاحنات والخلافات السياسية فى شبه الجزيرة العربية •

وتعرف هذه الاتفاقيات والمعاهدات بمعاهدة الصلح أو اتفاقيـة الهدنة ، وهى تحتوى على عبارات تستثنى الأجانب من تملك الأراضى ، وضمان الأمن البحرى الخليج ، وتنظيم تجارة الرقيق ، والغاء القرصنة ، وبالفعل فقد هاجم هؤلاء الشيوخ بعضهم ، واستولوا على ممتلكاته •

وفى عام ١٨٢٠ قام ثمانية مشايخ بتوقيع (معاهدات هدنة) ، وتشمل هذه المشايخ البحرين ، وقد أخذ الساحل اسما من هذه الهدنة فأصبح اسمه عمان المهادنة أو المتصالحة ، ويتكون ساحل عمان المهادنة هـذا من سبعة مشيخات صغيرة ، منها دبى ، والشارقة ، وعجمان ، وأم القوين ، ورأس الخيمة ، ومنذ عام ١٩٥٢ أضيفت مشيخة الفجيرة ، الصـغيرة الحجم ، التى تواجه خليج عمان •

ورغم أن الحماية البريطانية لم يتم اعلانها على هـذه الامارات ، ولكنها كانت مستترة تحت اتفاقيات معينة وتدخل ، واملاء أوامر فيمـا يختص بالشئون الداخلية والتمثيل مع الحكومات الأخرى على المستوى الدبلوماسى ، وحول هذه الاتفاقيات تقول احدى وجهات النظـر ، ان الحماية تعنى مراقبة ما يدور الى أن يتغير الناس ، ويستطيعون أن يدبروا أنفسهم بلا رقيب ، وقد تضمن خطاب اللورد « كرزن » عام ١٩٠٣ بمناسبة زيارة ملك الهند للمنطقة ما يأتى :

« نحن لم نستول على أراضيكم ، ولم ندمر استقلالكم ، ولكن حفظناه دون احتلال للأراضى ، والحماية ليست ظلما أو قهرا » .

ويبلغ عدد سكان الساحل حوالى مائة ألف نسمة تقريبا ، وهم خليط من العرب ، والفرس ، والبلوش ، والهنود ، والزنوج ، وكل سكان الساحل مولعون بالبحر أكثر من أى مجتمع آخر فى الجزيرة العربية .

وبحلول الليل سرنا الى دبى ، وهناك أخبرونا أنه توجد الاستراحة الوحيدة ، لذلك عدنا ، وجلسنا فى استراحة المطار .

وبينما كنا فى صالة الطعام ، رأينا رجلا انجليزيا يجلس أمامنا ، وقـام بدفع ثمن زجاجة الكوكاكولا الصغيرة من أجلى ، وعندما شكرته جـاء وقدم نفسه بأنه مسئول رسمى فى شركة البترول العراقية .

وسألناه بعض الأسئلة بخصوص الشركة ، ولكنه رفض الاجابة بقوله ، انها أسرار ، وأصيب بالدهشة عندما رد « بيل » وأخبره أنه يعرف كل شىء .

هنا ترى المدينة قائمة على امتداد سـواحل الوادى الضـيق ، بشوارعها وحاراتها الضيقة ، وهنا كذلك ترى المبـانى ذات الأبواب المزخرفة ، وكلها تقع فى مواجهة البحر حيث تستقبل النسيم البارد ، بسبب نسبة الرطوبة العالية فى أشـهر يوليو ، وأغسطس ، وسبتمبر الحـــارة .

وفى الشمال الغربى على بعد ميل تقع المدينة الحديثة .

وفى الصباح التالى استيقظنا على صوت المطر ، وبعد شراء المؤن

اللازمة من محل هندى فى دبى أخــذنا قاربا وعبرنا المجرى المعروف بنهر دبى ، والذى يفصل بين جزئين ، وقد كان هذا المجرى المائى رائعا ، رجل ومجدافان يقومون بكل العمل ، والنهر نفسه أوسع من القارب ، وهو يسع عبارة تحمل أربعمائة وخمسين طنا ، وقد ظهرت دبى عام ١٧٩٩ ، وظلت حتى عام ١٨٣٣ جزءا من أبى ظبى ، وبعد هذا التاريخ أصبحت منفصلة عن الدولة الأم •

ويبلغ عدد سكان دبى حوالى خمسة وأربعين ألف نسمة ، وهم أكثر سكان ساحل المهادنة تقدما وعددا ، وتعد البحرين أكبر ميناء ، ويملك تجار دبى حوالى أربعمائة سفينة ، ويرجع أصلهم الى الشرق أكثر من المغرب ، ومعظم التجارة مع جنوب شرق فارس ، وباكستان ، والهند ، ومقر المشرف السياسى بالباطنة ، أما المقر الخاص لمشيخات الهدنة فقد انتقل من الشارقة ، وهو الآن فى دبى ، وهى التى نجحت فى التجارة مع فارس ، وتسمى الآن بفينيسيا الخليج •

ويقدر عدد سكان دبى بحوالى خمسة وأربعين ألف نسمة ، أكبر بمعــدل ستة مرات من الشارقة ، وهى أكثر جاذبية ، وأقل فى التأثر بالغرب ، ولابد أن الموانى التجارية على خليج فارس والهند والصين فى القرن السابع عشر والثامن عشر كانت مثل دبى اليوم •

وفى الجزء الشمالى من المياه مقاطعة تعرف بديرا ، بينما تقع المدينة الرئيسية لدبى فى الغرب ، وهناك تجد المنازل الجديدة التى يمتلكها الهنود والتجار الفرس ، وبرجا هوائيا للتهوية ، والسوق هناك يذكرنى بساحل تهامة فى اليمن ، حيث أن كلا من الجديدة ودبى لهمــا معــالم متشابهة وشــوارع تجــارية ، وسرنا هنا رغم الأمطار مخترقين طبقات الوحل الكثيفــة •

وفى عام ١٩٣٨ نجح الشيخ سعيد بن مكتوم ، وابنه راشد ، فى القضاء على تمرد كان يهدد هذه المدينة ، وفى عام ١٩٤٠ اندلعت الحرب بين دبى والشارقة حول الحدود ، ولكن الشيخ سعيد قاوم ، واستبسل ، ودافع عن أكبر حصن فى دبى وخارج دبى ، وقد التقط « بيل » صـــورا لسلسلة من آبار المياه الفريدة ، وفوق قمة كل بئر كان هنـــاك صندوق خشبى صغير مثبت ، وله قفل ٠ أما تبرير ذلك فهو أن لكل أسرة بئرا ، والمـــاء هناك يباع ، ويربح البائع كثيرا ٠ وهناك نزاعات ومشاكل كثيرة حول هذه الآبار ٠

وصباح أحد أيام الجمع ودعنا ساندى ، الذى كان على وشـــك السفر ، عائدا الى انجلترا عن طريق البحرين ، لؤلؤة الخليج ٠

ولنا هنا وقفة فيما يخص البحرين ، فمنذ عام ١٩٥٣ ، أسست البعثة الاستكشافية تحت قيادة البروفيسور ب ٠ ف ٠ جالوب وجيوفرى مركزا مستمرا فى الجزيرة ، ومنذ خمسمائة عام كانت البحرين تعـــرف « بالجزيرة المقبرة » حيث أنها تحتوى على مائة ألف مدفن ، وقد كانت مركزا تجاريا هاما ، يربط الثقافات مع حضارة وادى الأندلس فى الهند ، وبفضل هذه الرحلات يمكن معرفة تاريخ مقابر الجزيرة العربية ، والذى يعود الى النصف الثانى من الألف سنة الثالثة قبل الميلاد ، ويعتقد أن البحرين كانت هى ، دلمون القديمة ، كما جاء فى الوثائق التى جمعت عن الحضارة السومرية ، وعن وادى الأندس ، وقد كان الفرس يحكمون البحرين من عام ٦١٥ م وحتى ٧٢٣ م ، واحتلها البرتغاليون من عام ١٥٢١ حتى ١٦٠٢ ٠ والموقع الاستراتيجى الحديث للبحرين يعود تاريخه الى عام ١٧٨٣ ، وهو نفس العام الذى طرد فيه شيوخ العرب الفرس من الجزيرة ، ومع ذلك فقد دفعوا الجزيرة لفارس ، ولكنها لم تستمر ، وفى

عام ١٧٩٩ قامت عمان •• بأربع سفن ، وستة قوارب ، وبشجاعة نادرة ، ودون أن تخشى الفرس واحتلت البحرين للمــرة الثالثة فى القرن الثامن عشر •

وهناك بقايا حصن عمانى كبير ، شيده أثناء تلك الفـترة ، السـيد سعيد بن سلطان بن أحمد على شاطىء البحر ، ثم خرج العمانيون ، وقد هزم العمانيون نتيجة خدعة ، وبسبب الكوليرا •

وقد قضيت ساعات جميلة مع أمير البحرين القدير ، الشيخ عيسى ابن سليمان ، فى فندق بلندن « دروسيتر » وكذلك فى البحرين ، وقـد ناقشنا مشاكل الخليج •

وبعد وفاة والده السيد سلمان فى ٢ نوفمبر عام ١٩٦١ عن تسـعة وستين عاما أصبح الشيخ عيسى حاكما لامارة البحرين المستقلة ، ورغم الحماية البريطانية على البحرين فان بريطانيا تمارس هذه الحماية بطريق غير مباشر ، وتقوم البحرين بالتمثيل الدبلوماسى مع قطر •

وهناك قضية أخرى ، هى أن فارس تعتبر البحرين جزءا من أراضيها الاقليمية ، وأنها « أى البحرين » تمثل تهديدا لأراضيها •

وفى الفترة التى أعقبت وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، كان الخليج فى يد الفرس ، ولكن مع بداية القرن العاشر حاصر بحـارة عمان كل التجارة ، الى أن استولى البرتغاليون عليها ، ثم جاءت أسبانيا بتشجيع من انجلترا •

وهناك أعمال نشطة فى القرى الساحلية تقام للبحث ، واستخراج اللؤلؤ الذى تحدث عنه الشعراء العرب ، ووصفوا أمطار الربيع التى تسقط

على شاطىء اللؤلؤ ، الذى يمتد عبر الشواطىء العربية للخليج ، من دبى جنوبا ، الى الكويت شمالا •

والبحرين هى المحور الرئيسى لصناعة اللؤلؤ ، واللؤلؤ هنـــاك هو الأكثر صلابة ، ويتم استخراجه من مياه البحر العميقة ، ويبدأ الغطس لصيد اللؤلؤ فى يونيو ، ويستمر حتى الأسبوع الأول من أكتوبر ، وأفضل الأماكن لوجود اللؤلؤ هى التى تكون على بعد خمسة أو عشرة فراسخ تحت المـــاء ، وهنـــاك شـــعار يقـــول « اجعـــل ابنتك ترتدى لؤلؤة من البحرين » •

وقد عانى ساحل الهدنة كثيرا بسبب اللؤلؤ فى الماضى ، سواء عن طريق القرصنة أو الاحتلال • وقد كانت القوارب هناك تعـــد بالآلاف ، واليوم ليس هناك سوى مئات قليلة •

ومستوى معيشة صياد اللؤلؤ منخفض جدا رغم عمله الشـــاق ، فهو يحصل على مكافآت قليلة جدا ، وتراه دائما فى ديون مع صـــاحب العمل ، حيث ان المنصرف أكثر من الربح ، أو المكافأة التى يحصل عليها ، وهناك أخطار عظيمة وخطيرة تواجه صياد اللؤلؤ وان كان هذا قد اختفى الآن الى حد ما • ورغم كل ما يعانيه صياد اللؤلؤ الا أن يردد دائما •• ماذا أفعل ؟ هذا هو الواقع ، وتلك هى الحال •

الفصل السابع

أحوال العرب ــ قانون الخيمة ــ جبل الشيال

الحكيم حجا ــ البريمى

لا نكون مبالغين اذا قلنا ، ان الدليل العربى الذى كان يصحبنا كان هو السبب فى تضليلنا الى حد ما ، فقد سار بنا فى الطريق الخطأ ، وفى النهاية أوقف جاما قافلة كانت تمر بنا حاملة الفحم ، وسأل قائدها عن الطريق ، وهكذا صححنا مسارنا ، ووصلنا فى المســاء الى جبل المينى ، وهو جبل كامل مغطى بالأطلال ، وقد بدت المنازل القديمة كأطلال قديمة ، أعيد استخدامها ، وقد ذكرتنا هذه بساحل ظفار وأطلال حاسك • وكان من الصعب تمييز المبانى المشيدة من الحجر الطينى عن تلك المشيدة من الأحجار الصخرية •

ومن قمة الجبل شاهدنا هناك خلفية هادئة من الأطلال ، والحقول المحاطة بأسوار ، كانت تشمل فلجا صغيرا ، يمتد الى الغرب ، والى الجنوب والشرق كانت هناك جبال عالية تطل من أعلى ، ثم اتجهنا الى وادى أراميا ، حيث كان الجو أكثر برودة ، وحيث توجد بعض التكوينات الجيرية ، وعندما حل الظلام وصل مرشدونا الى واد ضيق عميق ، ذى ماء جار ، وأشجار سنط وأحراش كثيفة ، وذكر أحد المرشدين أننا على بعد ساعة من قرية فحطة ، مقصدنا الأول ، ثم بحثنا عن بقعة فى أعلى الوادى لكى نستريح فيها ، حيث فضل الدكتور كروز عدم الاقامة فى القرية لأسباب صحية ثم عثرنا على مكان جميل ، ووزعنا البنادق ، وقررنا أن تكون الحراسة بالتناوب •

وفى الصباح ، وبعد ساعة ونصف ، من القيادة بالسيارة ، وصلنا الى واحة شرم الجميلة الخضراء ، حيث شاهدنا قرية كبيرة ، وحصنا فيه برج مربع ، تحيط به أشجار من النخيل ، ووجدنا الشيخ عبد الله بن سالم الكعبى ، الذى كان فى انتظارنا منذ أربعة أيام ، وكانت تحيته لنا كتحية الشعراء ، رقيقة وجميلة •

وقد وصلتنى رسالة من السلطان ، وبعد أن قبلتها قرأتها ، فاذا بها أوامر للشيخ عبد الله بمرافقتنا الى البريمى ، ومن هناك تم وضع الاجراءات والترتيبات لتأمين عودتنا الى صحار •

وفى الجزيرة العربية يكون الشيخ الصديق هو نصف المعركة فى الصحراء الموحشة ، ولهذه الجزيرة سحر وبريق أخاذ ، كواحدة من الممالك القديمة ، وهى تستحوذ — بلاشك — على اعجاب كل من يراها ، وبالنسبة لرجل مثلى فقد أعجبتنى تلك البساطة التى يعيش فيها الناس هنا ، ورغم أن هؤلاء العرب غير متعلمين الا أنهم ليس أقل ذكاء من الغربيين • ومنذ فترة طويلة قالت « الليدى آن بلنت » فى مجمل حديثها عن البدو « ان البدو لا ينظرون الى الضيافة التى يحسنون القيام بها ، على أنها واجب تفرضه العقيدة والدين فحسب ، بل لأنها عمل يقومون به عن اقتناع عقلى تام » •

وكل بدوى سواء كان غنيا أو فقيرا تراه كريما للغاية فى ضيافته ، ولقد كان لهذه المعانى من كرم الضيافة صدى كبير على صفحات الشعر العربى •

وحتى اذا زار البدوى واحد من ألد أعدائه ، يوما ما ، فى خيمته ، ووقف على المدخل ، فان حق البيت أو قانون الخيمة يحتم القيام بمهام

الضيافة فى الحال ، حتى ولو كان العدو قاتلا لأحد أقاربه ، فان الأبناء وصاحب الخيمة هم الذين يقومون بخدمته ، وهذه هى القيم الموروثة الخاصة بالضيافة العربية ، ورغم أن الأرض التى نشأ عليها هذا الكرم فقيرة الى حد كبير الا أن الكرم العربى لا حدود له •

وقد تحدث الكثيرون من المستكشفين الأجانب من الغرب عن الكرم العربى ، وضربوا الأمثلة التى رأوها بأعينهم ، وعاشوا لحظاتها التى انطبعت فى نفوسهم •

ثم توجهنا الى قرية مأرب ، ولهذه القرية ذكرى غريبة •• فعندما ذهبنا هناك أحاط بنا رجال القبيلة ، وصوبوا بنادقهم الينــا • وكانت وجوههم صارمة ، ونبراتهم غليظة ، حتى بدا لنا أننا فى أزمة ليس لهــا مخرج ، وحتى عندما خرج واحد لتحيتنا صوب الزعيم بندقيته اليه ، وهنا تحدث « جاما » الى الزعيم وسأله « ألم يخبرك السلطان عنا ؟ » وهنا قال الشيخ الزعيم : لا وان لديه أوامر باطلاق النار ، وقال « أنتم أسرى — أو سجناء » وهنا أخذ « جاما » يؤكد له سلامة موقفنا ، وتأييد السلطان لنــا ، حتى تأكد من ذلك ، وخرجنــا من تلك الأزمــة الغريبــة •

وخلف تريم قطعنــا ميلين ، ومررنا على النويبجى ، حيث التقط « بيل » بعض الصور لجبل خويل ، ثم وصلنا الى قرية مخطة ، وهى قرية الشيخ عبد الله ، عاصمة بنى كعب ، والتى تحتل موقعا متوسطا بين ساحل الباطنية ، والبريمى ، والساحل القديم ، وهناك حصن كبير ، يرفرف فوقه علم السلطان ، وهنا نجد العادات العربية ، وكرم الضيافة ، وأكواب القهوة ، والفاكهة اللذيذة ، وخدمة الضيف الرقيقة ، وللقهوة هنا مكانة خاصة فى حياة البدو ، فهى لدى العربى كالهواء الذى يتنفسه ، ويقول

البدو للضيوف دائما ، ان القهوة معدة ، وخلال مناقشة هادئة جميلة طلبت من الشيخ عبد الله للمرة الثانية أن يؤجل موعد الغداء حتى نعود بعد الظهر حيث كنت أرغب فى زيارة مقاطعة ، تبعد ثلاثة عشر ميلا فى الشمال الشرقى ، وأخذت وقتا طويلا حتى أقنعته ، فالمستكشف هنا يحتاج للصبر دائما ، وكما تقول الحكمة العربية « العجلة من الشيطان » .

وفى مدينة تباح القديمة تغطى الأطلال مساحة كبيرة من الأرض بلا مبان مرئية ، وتوجد فقط أساسات صخرية منتشرة هنا وهناك ، وخنادق ، وتشابه هذه الآثار مثيلتها فى فلج السوق ، وهنا يوجد مجرى مائى أفسح لنفسه المكان فى الصخر الصلب ، وخلال أربعين دقيقة عدنا لقرية مخطة ، وتناولنا الطعام لدى الشيخ عبد الله .

وأثناء الطعام تذكرت أقصوصة مضحكة ، من أقاصيص التراث تروى ما حدث للحكيم جحا فى ضيافته لرجل جاءه وأعطاه مصباحا ، وطلب عشاء ، فأكرمه جحا وأحسن اكرامه ، وفى اليوم الثانى أتاه رجلان ، وقالا له : انهما صديقا صاحب المصباح ، وتناولا العشاء ، وفى اليوم الثالث أتاه ثلاثة ، وقالوا له انهم أصدقاء الرجلين ، صديقى صاحب المصباح ، ويريدون عشاء ، فأكرمهم كذلك ، وفى اليوم الرابع جاءه خمسة وقالوا : انهم أصدقاء الاثنين ، صديقى صاحب المصباح ، وطلبوا عشاء ، فقدم لهم جحا الماء فقط ، وقال ان هذا الماء هو صديق ماء الثلاثة رجال أصدقاء الرجلين ، صديقى الرجل ، الذى أعطاه المصباح ، وأوقد النار عليه .

وقد كان الشيخ عبد الله كثير الفخر بابنيه الصغيرين ، اللذين لم يجلسا معنا ولو للحظة ، وقد قدم لنا الشيخ بعض رجاله وحارسه الخاص ، ليسيروا بنا الى جبل حفيت ، الذى يرتفع على الصحراء كحوت

يقف على مؤخرته ، وهـذا الجبل تسكنه الحيوانات المتوحشة ، ثم وصلنا الى مقر قيادة والى البريمى ، الذى خرج ورحب بنا ، وهو الشيخ سالم ابن حميد ، وعمره ستون ، وقد توفى هذا الرجل فى السيب فى مايو عام ١٩٦٠ ، وقد خدم كوال منذ يوليو عام ١٩٥٧ ، وعندما أعطيته رسالة السلطان قبلها ، ثم وضعها على جبهته ، وأردف قائلا ، بأنه عرف السلطان منذ كان طفلا ، وقد عرضت عليه أن أقيم معسكرا فى الرمال ، ولكنه صاح ، ورفض ذلك بشدة قائلا ، ان كل منازله مفتوحة لخدمتنا ، وقال « أستغفر الله » .

وعند خروجنا وصلنا الى وسط البريمى وهى عبارة عن قلاع كبيرة ، ومنازل من النخيل ، وتضم الواحات تسع قرى ، أقدمها هى البريمى ثم حمامة ، ثم سارة ، حيث قبائل « النعيم وبنى جابر — والشميس » ، وهم يخضعون لسلطان عمان .

واليوم وعندما يقول أى شخص فى الساحل القديم انه « ذاهب الى عمان » فالمقصود والمفهوم هو أنه ذاهب الى البريمى ، أقرب جزء من عمان ، أو فى عمان .

الفصل الثامن

الرمال الحمراء — الرباط القبلى — الأخلاق الحقة هى الطريق الى المشيخة .. الفخر والاعتزاز — البدو المغيرون — بنو هلال — القيادة أسفل وادى الجزى

« فى تلك الصحراء المقفرة ، يسكن العرب الذين يسمون بالبدو ، وهم أناس ذوو طبيعة ساخنة ، ودماؤهم حارة ، وهم أقوياء يعشقون الحرب ، وطبيعتهم حادة تتسم بسرعة الانفعال » •

« سيرجون مانديفيل »

كان الهدف التالى لنا فى البحث هو صفوان ، بأطلالها فى الشمال الغربى من البريمى على حافة الصحراء ، وكان الشيخ عبد الله مرشدنا ودليلنا يبذل قصارى جهده ، وقد ذكرت له ، أن هذه البقايا التى نراها تعود الى مائة وخمسين عاما مضت •

ولقد كان المنظر جميلا بحق هنا ، وكان منظرا لا يمكن نسيانه بسهولة ، ذلك المنظر بكثبانه الرملية الرائعة ، والتى شكلتها الرمال البديعة ، فصنعت لوحة فنية رائعة •

ثم أقام الشيخ خيمته الخاصة لنا ، ووضع أربعة من رجاله لخدمتنا

وحراستنا بالليل ، وهناك نوعان من البدو « رحالة الصحراء » فى عمان .. الشواوى الذين يسكنون بالقرب من الجبال مثل أولاد العوامر ، أما البدو الحقيقون فهم اللذين يعيشون فى الصحراء برمالها ، أو بالقرب من رمال الصحراء ، مثل الوهابيين ، وقد سمى البدو بذلك الاسم ، وحسب تفسير العرب ، فان ذلك الاسم يعود الى « البادية » ويعتبر الشيخ عبد الله مثالا للبدوى الشجاع الكريم ، الذى يعرف النظام القبلى ، تمام المعرفة ، وقد ذكر فى معرض حديثه عن النظام القبلى : أن لكل قبيلة شيخا أو رئيسا يحترمه الجميع ، وللحق ، فقد أسرنى هذا الشيخ بابتسامته ولباقته ، وتوسطه بين الشدة والتسامح .

وكلمة الشيخ تعنى الرجل العجوز المتقدم فى السن ، ولها معنى هنا يفوق مجرد المعنى اللفظى للكلمة ، فهى تعبر عن الكياسة والحكمة ووجوب الطاعة والاحترام ، وفى التنظيم القبلى يلعب الشيخ دورا عظيما ، ويقابل بالولاء والطاعة ، فهو يحمل عقائد وأفكار قبيلته ، وقد ذكر « رافائيل باتى » أن سلطة شيخ القبيلة لا تقوم بناء على القوة ، ولكنها تقوم على السمعة والحكمة والمكانة التى يحظى بها .

وهنا نجد لكل فرد حريته واستقلاله ، ولكن هناك حلقة وصل تربطهم جميعا بعضهم لبعض ، والولاء والعون لفرد يعنى كذلك للجماعة ، ووحدة الأصل والتعاون والمصلحة العامة هى القانون ، وهى العرف لدى هؤلاء البدو .

« لا يمكن أن تقع حادثة لبدوى دون أن تهب كل القبيلة لنجدته » .

ولأن قرية مخطة ليست فى نطاق حكم والى البريمى فان الشيخ عبد الله يشغل وظيفة شيخ البلدة ، والوالى فى نفس الوقت ، وتضم هذه

البلدة اثنين وثلاثين قرية تحت سيطرته ، ويبلغ عدد سكانها خمسة آلاف بدوى من بنى سعد •

والجريمة داخل القبيلة لا تعنى جريمة بين جميع أفراد المجتمع ، ولكنها بين أسرة القاتل وبين القتيل فقط ، وقد يكون للجريمة قصاص ، أو دية ، حسب ما يريده أقارب القتيل •

ومعيشة البدو هنا • وبكل المعايير ، تعتبر مثالا لكيفية العلاقة التى تقوم على نظرية « البقاء للأصلح » وقدرة الانسان على تكييف حالاته مع الظروف السائدة هنا فى الصحراء وحيث الطبيعة القاسية ، وحيث الذين يولدون فى هذه الظروف القاسية ، والذين يعانون من المرض والسكن الردىء ، تلك المعيشة البدائية ، وعلى الانسان الذى يعيش هنا أن يتحمل كثيرا فى هذا المكان الموحش بين الذباب ، والعقارب ، والوحوش ، ورغم الجوع والعطش القاسى والحالة الاقتصادية السيئة التى تحيط به ، فانه يغزو كل ذلك ، ويقاوم قسوة الطبيعة ، وجها لوجه ، ويشير الى نفسه بفخر واعتزاز ، وكأنه ليس هناك على الأرض من يساويه ، أو يصل اليه ، وهو راض عن حالته هذه ، ويشعر أن الدماء تجرى فى عروقه هى الأفضل ، وهو يفصل الجنة عن كل ممالك الأرض ، التى تبدو فى نظره صغيرة للغاية ، وبلا معنى ، أو فلتقل بلا وجود حقيقى ، فهى فى نظره أوهام الحياة الدنيا ، وتدور كل أفكاره حول الله ، الذى يمنحه التفكير ، ويشعر أنه بدون الله سبحانه وتعالى لن يتمكن من التفكير أو الحديث ، أو عمل أى شىء ، وهذا الكفاح الذى لا ينتهى أو يضعف فى بيئته الشاقة حيث المرض والعراء بلا ماء قد جعلت العربى قويا وشجاعا لا يكل ولا يتعب •

وحياة البدو ترتبط — وبدرجة قوية بالشرف والكرامة ، فهما تاجه

الذى لا يستطيع الحياة أو السير بدونه ، أو بدون سمعته الحسنة ، واذا حدث وخدش هذا الشرف ، أو تلك الكرامة ، فان الموت هو الحل أمامه •

والجريمة السوداء عند البدوى هى خيانة الصديق ، فالبدوى يضحى فى سبيله بنفسه ، ويقسو على أعدائه بلا هوادة أو رحمة ، والبدوى يحب القوة والاحترام • ويرفض أى علامة من علامات الضعف ، وكما قال « هيرودوت » ان العرب يحفظون العهد أكثر من أى انسان آخر •

وقد وجد أن العرب مخلصون ، مفكرون ، يتعاونون ، ويحفظون الصداقة ، ويتميزون بقوة شخصيتهم فى التعامل وفهم الآخرين ، والبدوى ليس مهملا ، وليس أيضا ساذجا ، كما يوحى مظهره عند النظر اليه للوهلة الأولى ، ولكنه ، وبطريقته الخاصة ، ينتصر على كل الصعاب والمشاكل التى تواجهه ، وللعربى عقل ذكى نابه ، والعمليات العقلية التى يقوم بها بسيطة ومباشرة تمده بالاستنتاج الراسخ • وهو ذو نظرة منطقية للأمور وقليل من الرومانسية ، وعندما يتعامل مع انسان غريب لأول مرة تجده يتخذ الكذب شعارا لمعرفه حقيقة هذا الغريب ، فالعربى من طبعه الشك ، والبدوى بطل كذلك فى اتصالاته وعلاقاته الاجتماعية ، وهو واثق بنفسه ، راض دائما وقنوع بما هو عليه ، يصمم دائما على الطريق الذى يسير فيه ، ورغم أن الحرية الانسانية نسبية فى كل المجتمعات الا أنه لا يوجد من هو أكثر حرية من العربى فى الصحراء ، أما المفتاح الخاص الذى يستخدمه للتغلب على الصعاب الطبيعية وعدم تقييد الحرية فهو عدم الراحة ، والنشاط المستمد المتزايد •

وقد يأتى من الأحداث والمواقف التى تثير أعصاب البدو الى

حـد ما ، وربما تحتم عليهم الظروف ارتكاب جريمة ، ولكن العـدوان والاثم ليسا من سجايا البدوى ، فهو يشعر بالندم وعذاب الضمير بعد ذلك ، والبدوى هو أب للصحراء وليس ابنا لهـا .

ويعتبر غياب وجود حكومة مركزية هو المسئول الأول عن عـدم توافر مشروعات تنمية جماعية واجتماعية فى هـذه المناطق ، وأؤكد أنه لو توافرت هـذه المشروعات الخاصة بالتنمية لشهدت الصحراء مزيدا من التقدم والازدهار .

وعند الظهر تركنا منزل الشيخ عبد الله ، عبر وادى الجزى ، وسرنا فى الطريق الى صحار ، وعلى كلا الجانبين كما نرى تكوينات من الأحجار الجيرية ، وتعرف هـذه المنطقة باسم « مجان » ، وتحتوى هذه المنطقة على النيكل والنحاس ، ثم وصلنا الى جبل كامور ، وشاهدنا فى اليسار جبلا منعزلا ، على رأسه برج مراقبة ، ويرفرف عليه عـلم السلطان ، وعلى اليمين يوجد أحد مكاتب جيش السلطان ، ثم مساحات واسعة من الواحات الخضراء الجميلة ، وأشجار النخيل ، وأشجار الفواكه الكثيرة ، ثم على البعد حصن قديم والكثير من الأطلال ، ثم أحـد الأفلاج ، وقد جذبنى للغاية هذا النظام البديع للرى .

وفى الطريق أمضينا ليلة باردة فى الصحراء ، ولكننا لم نشعر بقسوة البرد ، فقد كنا سعداء للغاية ، وبعد فترة ليست طويلة من التجول فى الصباح وصلنا المقابر المنتشرة على أطراف صحار ، بعد رحلة رائعة بديعة .

الفصل التاسع

البحث والتنقيب فى صحار — ليست هناك مدينة قديمة — القراء ... بحيرة دربات — القبائل الأربع فى القراء — الأحوال والظروف السائدة

فى فترة غيابنا ، كان « رى » يحتفظ بفريق البحث والتنقيب فى صحار وقد ودعنا ساندى فى نفس اليوم فى الشارقة ، حيث أقام فتحة كبيرة فى تل رئيسى هناك ، بمربع يبلغ عمقه خمس عشر قدما جنوبى المدينة ، وكان التل يقع مباشرة بمواجهة مكتب الجمارك المجاور للبحر ، والذى اتخذنا فيه مقرا للرحلة الاستكشافية ، وكانت هذه الحفرة على بعد مائة وخمسين ياردة من البوابة الغربية لسور المدينة ، التى انهارت بأكملها ، مخلفة وراءها ملامح الفن المعمارى الذى كانت عليه . ولم نعثر على أى نوع من المبانى فى المستويات السفلى للحفر ، وكانت هناك بعض قوالب من الطوب تدل على وجود صناعة للطوب ، على قرب من هذا المكان ، ولكنها لم تمتد لبقية المنطقة .

وقررنا أن نقسم المجموعة الى فريقين ، فريق يبدأ من الفجر وحتى المساء ، على أن يكمل الفريق الآخر بقية اليوم ، وقد كانت هذه الحفر التى قمنا بها بجوار الأجزاء العلوية فى أعلى جزء من التل الرئيسى ، ويعود الطوب المستخدم هنا الى القرن السابع الميلادى ، ووجدنا كذلك قطعتين من قطع القيشانى الأوربية ، وكذلك وجدنا بعض الحفريات لتاريخ القرن الثامن الميلادى ، ووجدنا كذلك الكثير من التحف التى تدل على الابداع فى فن الزخرفة ، وأيضا وجدنا تكوينات من الطوب ، وقوارب

صغيرة كانت تستخدم قديما فى نقله ، وقد تم العثور على أنواع كثيرة من هذه القوارب فى الشرق ، والتى يبدو أنها كانت تأتى من بعلبك .

المهم أنه ليس هناك أى أثر لمدينة قديمة ، وحتى لو وجدت آثار مدينة قديمة ، فان عوامل البحر وزحفه الى الشاطىء ربما يكون قد قضى على آثارها أو محا تلك الآثار .

وتؤكد الأبحاث الجيولوجية أن الرخاء والازدهار التجارى فى صحار لم يرد ذكره الا فى المصادر الأدبية أو القصصية وليست المصادر الجيولوجية .

ويعود النظام البديع الخاص بالأفلاج ، والقنوات هنا الى القرن العاشر الميلادى ، ويمكن القول بأن مبانى ومنازل صحار التى فرقناها من البقايا الخاصة بصحار لم تكن تبلغ من الروعة والعظمة ما كانت عليه بغداد مثلا بعد الاسلام ، ويمكننا القول كذلك ، أن صحار لم تستطع الاستفادة من الحضارات والثقافات التى كانت تحيط بها وراء الصحراء والبحر .

ثم نعود الى رحلتنا :

وصل الشيخ صقر من مسقط ، وهو يحمل تعليمات من السلطان الى الشيخ عبد الله ، تقتضى سفره هو والشيخ صقر الى البريمى معا ، وبالفعل ودعنا صحار فى يوم الجمعة ٣١ من يناير عام ١٩٥٨ ، وعندما وصلنا وجدنا حجرة رسمية معدة للاستقبال ، وقد تم اعدادها خصيصا لنا ، وكان الاستقبال حارا ، وطلبنا من جلالة السلطان أن يسمح لنا بتصوير فيلم فى القصر ، وتكرم جلالته بالسماح لبيل بالتقاط بعض الصور لجلالته .

وفى اليوم التالى ، حضر طالب وعبد الكريم لتوديعى ، ولطالب وعبد الكريم قصص وذكريات معى ، ولكن المقام لا يتسع لذكرها .

وفى المساء جلست مع جلالة السلطان ، وقد سره كثيرا ما سمعه عن تفاصيل رحلتى مع الأطلال فى صحار ، وأيد طلبى بخصوص الحفر فى ظفار ، وأن يكون برئاسة جاما ، خلال فترة عودتى الى نيويورك ، ثم حدثنا جلالة السلطان حديثا عظيما ، ومن القلب ، دار حول توقعاته لمستقبل عمان ، ثم تحدث بصراحة منقطعة النظير ، وقال : إن الأخطاء وجوانب القصور والضعف الحاضرة ليست خطأه ، ولكنها أخطاء موروثة ، وأنه يبذل قصارى جهده لتغييرها تدريجيا ، فهو يتمتع بأفكار تقدمية ، ولكن لا يمكنه أن يطبق هذه الأفكار بسرعة ، لأنه بذلك ينفصل عن شعبه .

ثم قمنا بعد ذلك بزيارة منطقة القراء ، وكان سكانها بمثابة لغز من العصور القديمة .

وقد عرف كتاب اليونان والرومان الذين كانوا يجهلون أجزاء كثيرة من الجزيرة ، ومن خلال اتصالهم بسورية وفلسطين ، أن هناك مساحة كبيرة من الصحراء العارية فى تلك المنطقة ، وقد عرفوا من المسافرين أن الجزيرة ليست كلها كذلك ، ولذلك فقد سموا الجزيرة « بالجزيرة السعيدة » و « الجزيرة الصحراوية » ولكن الرومان واليونان لا يعرفون مثلما نعرف نحن الآن عن هذه المنطقة ، حيث الأشجار العالية ، والنخيل ، والأطلال والمدن القديمــة ، والفنون التى كانت هناك ، لقــد فهمنا ظفار التى لا يعرفونها ، والتى اذا ما قورنت ببقية الجزيرة تعتبر جنة بأشجارها وعيون المــاء فيها ، وكذلك ببحيراتها وشلالاتها ، والجبال التى تكسوها النباتات والأحراش ، وهناك تناقض كبير بين قارة آسيا ككل ، وبين ظفار التى تبلغ مساحتها حوالى ثمانية وثلاثين ألف ميل مربع ، وهى تقع فى

جنوب مسقط بخط ساحلى يمتد مائتى ميل ، بين الأرض المعروفة باسم رأس دربات ، ورأس منجى ، والحدود الشرقية لظفار تمتد للسواحل من رأس منجى ، ولمسافة مائة وسبعين ميلا الى شمال رملة مغشن • وفى الشمال تمتد عبر الرمال لمسافة مائتى ميل • وتمتد الحدود من الجنوب خـلال وادى شعيت وميتان •• الخ ، ومن هناك حتى جبل صدافة فى وادى حبروت جنوبا الى « رأس دربات » على الساحل •

وترتفع جبال القراء رأسيا الى الشمال ، وتطل على السهل الساحلى الى ارتفاع أقصاه حوالى عشرة أميال ، وتنتشر هنا وهناك مجار مائية ، وكذلك بعض النباتات التى تغطى الجبال فى مناطق متفرقة ، وكذلك بعض الكهوف ، وهناك أيضا قطعان الماشية ، وفى الجانب الغربى من وادى نهاز ، قمت ذات مرة بزيارة لكهف شحور ، الذى يحتوى على تماثيل على شكل طيور ، وكذلك على عظام ، واذا كانت المعتقدات المحلية صادقة فإن الجن تسكن ذلك الكهف ، وإن كان من الخطورة بمكان ، ومن غير الحكمة ، أن نصدق مثل هذه الروايات ، التى تمنعنا من الاتجاه أو التقدم نحو أى مكان نريد البحث أو التنقيب فيه •

ويسمى سكان منطقة ظفار أنفسهم بالجبالى أو الجباليين ، ويطلقون على أنفسهم القراء ، أما قبيلة القراء فهى مقسمة الى حوالى خمس عشرة قبيلة ، فرعية ، وتنقسم كذلك كل قبيلة فرعية داخل نفسها حسب رابطة الدم ، وهم يعيشون اليوم فى منازل من الطين •

ومن عادات الناس هنا ملاقاة بعضهم البعض بالقبلات وتشابك الأيدى ، وبعضهم يحمل السيوف ، ولرجل القراء قوة تحمل كبيرة ، وكذلك يتميز ببنيان جسدى قوى ، وهم عادة حليقو الذقون بلا لحية •

أما النساء هنا فهن صغيرات يتميزون بجاذبية محببة ، وهن غــير محجبات على عكس نساء البدو وجميعهن ، وأحيانا ، وفى حالات معينة تتزين المرأة هنا باستخدام الألوان المختلفة فى تجميل وجوههن ، ويتزوج الأبناء هنا عادة فى سن الخامسة عشر ، أما الزواج والطلاق فهو سهل للغاية فى القرداء .

الفصل العاشر

الجزيرة العربية وغناها بالتوابل ــ أشجار اللبان ــ أشجار المــر ــ سد مارب ــ أطلال جنوب ظفار القديمة وواحاتها

ترتبط رفاهية ظفار على مر العصور بلبانها الرائع ، الذى كان يمثل عمود التجارة الأساسى فى كل جنوب شبه الجزيرة العربية قديما ، وهناك اتحاد خاص من العوامل الجغرافية والمناخية ، منذ العصور القديمة ، قد ميز منطقة نجد ، التى تقع شمال جبال القراء مباشرة ، وهذه العوامل هى مصدر تلك العصور الأسطورية التى انتقلت عبر الجنوب الغربى ، وشمالا عبر البحر الأحمر ، الى المناطق المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، وقد خلقت نوعا من الازدهار للمدن الواقعة على الطريق والمدن الرئيسية فى شبوه ومأرب .

ويعود أصل كل الأنواع الجيدة من اللبان والتوابل الى ظفار ، حيث كان يتم شحن بعضه على مراكب شراعية ، والباقى تحمله القوافل عبر وادى ميثان ووادى « فسد » حيث يمر الطريق بالربع الخالى ، ورغم أنه حتى الآن لم يعرف تاريخ الاستخدام الأول للبخور ، الا أن تجارته كانت مزدهرة للغاية ، وكان البخور من أغلى السلع التجارية .

وقد كتب الكثيرون من الرحالة والمستكشفين كثيرا عن بلاد البخور ، وعن ظفار بصفة خاصــة ، عندما سلطت عليها الأضواء ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، ورغم أن « نبات المر » ينمو فى غرب الجزيرة العربية مع بعض أنواع التوابل والبخور إلا أن ظفار تعتبر هى الأولى ، من حيث انتاج التوابل .

وتشرف قبيلة « بيت كثير » على انتاج البخور فى ظفار ، حيث تتولى كل أسرة العناية بأشجار البخور الخاصة بها ، وهناك كذلك أشجار اللبان الذكر الذى يترك حتى يصفر لونه • وفى منطقة ظفار ، وكذلك فى جبال القراء ، ينمو المر على الرغم من أن بعض التقارير قد ذكرت عدم وجوده هناك •

ومن أبرز الأطلال والآثار القديمة فى ظفار تلك المنطقة الساحلية التى تقع شرق صلالة ، والمسماة الآن بالبلد ، والتى تعنى بالنسبة للسكان المحليين ، المدينة ، وهذا الاسم « البلد أو المدينـــة » يعنى كبر حجمها وأهميتها ، وأنها أول مدينة يطرقها الجيولوجيون فى ظفار •

وقد كان أملنا كبيرا فى أن نجد آثار الحضارة العظيمة لجنوب الجزيرة العربية • ولكن فى « البلد » كانت الآثار قديمة جـــدا ، بالدرجة التى لا تمكننا من العثور على ما نريد ، وعلى الحدود الشمالية لجبال القراء تقع منطقة حنون على بعد ستة وثلاثين ميلا ، شمال صلالة ، على طريق جبلى وعر • وهذا المكان معروف جدا لدى البدو ، حيث إنه فى أعماق ذلك الوادى حوض مياه ، وهذا الحوض يعنى الحياة ، بدلا من الموت ، بالنسبة لراكب الجمل ويقول السكان المحليون : إن الحوض يشبه الكوب العملاق الموضوع فى الأحجار الجيرية الصلبة ، والذى يمكن أن يحفظ المـــاء لمدة اثنى عشر عاما ، ويبلغ قطره حوالى عشرين قدما ، أما عمقه فيصل الى ثلاثين قدما ، وربما كانت البئر أو الحوض هذا يتغذى من باطن الأرض ، ويظل مليئا بالمـــاء ، رغم عدم سقوط الأمطار فى بعض الأحيان •

وقد أدرجنا آثار حنون فى بحثنا عندما رأينا نقوشا ورسوما أثرية

هناك ، وبعدها انتهينا من حنون وبدأ الحفر فى سمهورام بعد أن قمنا بنقل المعدات الى خور رورى وأقمنا المعسكر •

وأول شىء عثرنا عليه ، هو رأس قمة عالية من جبل لم نر مثله • وهناك تكوينات من الطوب تدل على وجود تحصينات دفاعية قديمة ، كانت تستخدم للدفاع عن المدينة ، وهناك كذلك برج مرتفع فى الشرق خارج أسوار المدينة ، على بعد ست أقدام منها ، يقف عليه المحاربون باعتباره موقعا هاما للسيطرة وإنزال الهزيمة بالأعداء • وكان أهم ما فى حملتنا هو العمل داخل هذه المنطقة الواقعة شمال سور المدينة ، حيث يجد الجيولوجى آثارا لمبان قديمة عظيمة ، وفى أعالى الصخور توجد قطع من البرونز الذى تم اكتشافه حديثا بالمنطقة •

ومن أهم المناطق التى حيرت اهتمام المستكشفين فى ظفـار تلك الواحات التى تبعد بمسافة سبعة وخمسين ميلا شمال شرق صلالة ، فى وادى النظور المتسع على الحافة الجنوبية لنجد • وتسكن وادى نظور هـذا قبيلة البطاهرة ، وقد وجدنا فى هذه الواحات كذلك بعض الآثار القديمـة •

ومن موقعنا هذا وخلال ساعة تقريبا وصلنا الى تكوينات مدهشة تشير الى وجود أنواع من الزراعة قديما • كما وجدنا هنا اثنتى عشر من مجموعة من أكوام الصخور ، وقـد كانت وبالتأكيد مدافن تقع على الطريق المستقيم الذى يجرى شمالا وجنوبا ، كما يوجد هنا خط مستقيم بموازاة الغرب ، يتكون من مناطق حارة جدا ، وكانت هناك نقوش على بعض الأحجار ، ولكنها كانت غامضة وغريبة •

وبعد عشرين دقيقة لهثت فيها أنفاسنا وصلنا الى أطلال ماسونية وأسوار على قمة هضبة مستديرة ، يبلغ قطرها حوالى خمسين ياردة ،

وهناك سور دفاعى فى الجزء الشمالى ، وأفضل تفسير لهذه الأطلال هى أنه كان يوجد هناك حصن للحراسة والسيطرة على مزارع اللبان الذكر ، وأنها كانت منطقة هامة لانتاج البخور ، وعلى أية حال فإن واحات نظور كانت محطة هامة للراحة على طريق القوافل المارة فى الطريق الى الخليج فى الشمال ، والى حضرموت فى الغرب ، وكان على ممالك حضرموت أن تحصن واحات نظور ، للسيطرة على تجارة البخور واللبان ، وهكذا كان الهدف من إقامة هذا الحصن .

وقد كانت حنون وخور روری ونظور هى المواقع الوحيدة فى ظفار كلها ، التى يمكن القول ، بأنها تعود الى عصور ما بعد الاسلام .

الفصل الحادى عشر

زنوج ظفار — ملكية الأرض — البحث فى أطلال حاسك — الربع الخالى — الرمال — سور كاشف — بيت كثير — البحث عن إبر فى سبأ

كانت السمة الأساسية لأى نظام حكم فى الجزيرة العربية فى الماضى هى عدم الثبات والاستقرار ، واليوم تتمتع ظفار بالأمن والرخاء ، ويعيش سكانها عيشة رغدة ، لا يخافون شيئا ، ويبدو — فى الحال — عند الوصول اليها أنها هى البلدة الوحيدة التى ينظر إليها السلطان بعين الاعتبار ، وقد كان مجلس الوزراء الذى تم تشكيله عام ١٩٢١ بأمر جلالة السلطان تيمور مسئولا عن كل المحافظات فى عمان ، والاشراف على جميع الولاة ، عدا ظفار ، التى كان واليها مسئولا مباشرة أمام السلطان ، وليس تحت إشراف مجلس الوزراء ، وتعتبر العاصمة صلالة جميلة نسبيا عن بقية المحافظات ، بشوارعها الواسعة أكثر من كل المدن العربية ، وتضم قصر السلطان ، وتوجد مدرسة ابتدائية على الطراز الحديث ، ومستشفى بمعدات حديثة ، ويمكن أن نرى صلالة على خريطة شركة أرامكو ، كما يمكن القول بأن المجتمع المطل على شاطىء البحر ، والذى يضم القصر ، والمدرسة ، والمستشفى مكان منفصل ، يطلق عليه اسم الحصن .

ثم وصلنا الى المعمورة بعد خمس وعشرين دقيقة ، حيث الحدائق الجميلة وسط أشجار النخيل ، كما تنتشر هنا أشجار جوز الهند .

وهناك أربعمائة شجرة لبان مزدهرة ، وهى الأشجار التى أمر بغرسها جلالة السلطان ، وهنا ، وفى هــذا المكان ، يوجد حمام كبير للسباحة وماء عذب ، ويأتى هذا المــاء من عين كبيرة فى وادى رزات ، ويقدر هذا المــاء بأربعمائة ألف جالون ، وهنا تنقسم الأراضى الزراعية الى ثلاثة أنظمة يعترف بهــا :

١ ــ ملكية خاصة •

٢ ــ إيجار طويل المدى من الدولة •

٣ ــ إيجار قصير المدى لانتاج محاصيل سنوية للدولة •

والمزارع هنا تتكون مساحاتها من خمسة الى عشرة أفدنة ، والرى هنا يعرف بنظام الآبار ، وذات صباح بينما كنت أجلس مع جلالة السلطان فى القصر حدثنى جلالته عن أطلال حاسك ، والتى تقع فى الجانب الغربى من جزر كوريا موريا •

وقد كان لحديث السلطان أثر شــديد فى نفسى ، أثار رغبتى فى الاستكشاف ، والبحث فى تلك المنطقة ، وبعد أسبوع أبحرت من مرباط فى الشرق باتجاه السهل الساحلى ، وكانت هذه هى رحلة السلطان حقا ، فقد أمدنا بكل شىء من طعام وماء ، بالاضافة للقارب الذى زودنا به ، وهو قاربه الشخصى ، ومجموعة من الأسلحة ، والعملات الفضية التى ربما نحتاج فى الطريق ، وكان معنا ابن والى ظفار ، الذى كان راغبا رغبة شديدة فى أن يتعلم الانجليزية ، وقد كنت فى هذه المرحلة فى بداية معرفتى باللغة العربيــة وحاولت تحســين لهجتى عن طريق تعليمــه والتحدث معه •

ويمر هذا الساحل المجهول من صلالة فى الشرق الى « صور » على امتداد خمسمائة ميل ، وكنا نحصل على حاجتنا من المؤن التى نحتاج اليها من القوارب المـــارة .

وتعتبر جزيرة محوت فى خليج مصيرة هى المحطة التجارية الهامة على الساحل ، والثانية بعد صور خلال فترة ازدهارها ، فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكانت الصادرات الوحيدة هى التمر والأصداف .

ووصلنا الى قرية سدح التى تشتهر بالصيد ، ولها ميناء جيد تحده جبال الجرانيت ، وبعد الاستقبال الرسمى الكريم سمحوا لنا بالبقاء حتى الثانية صباحا بهذا الميناء . وهذا ميعاد مناسب للوصول الى حاسك فى وسط النهار من اليوم التالى اذا سارت الأمور على ما يرام .

وفى حاسك كانت المبانى مشيدة على جانب الجبل بمواجهة البحر ، وهناك الجبال الأخرى المظلمة ، والتى لو جاءها أعداء من البحر لغزوها لفقدوا أثرها ، وهناك كتلة من الصخر الصلب على ارتفاع أربعة آلاف قدم ، وتضم الأطلال الممتدة « بلا أســوار » منازل صغيرة وعديدة ، ليست مبنية من الحجر الجيرى ، وليس عليها أغطية وقائية من الرمال ، وبعد توزيع الرجال لجمع عينات الصخــور ، قمت بعمل ثلاثة عمليات تنقيب فى ثلاثة أماكن .

وتعتبر حاسك إحدى الأماكن القديمة لمقبرة النبى هود عليه السلام ، ورغم أن بطليموس ذكر ذلك ، إلا أن هذا كان غريبا بالنسبة لى ، لأنى لم أجد أية أدلة ، وقد ذكر « البكرى » المتوفى عام ١٠٩٤ ميلادية حاسك كحدود غربية لعمان ، بينما كتب الادريسى ، فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، واصفا هذا المكان نقلا عما كتبه الرحالة والمسافرون بقوله أن

المدينة الآن شبه خرائب •• تسمى « سوق حاسك » ويسكنها قبائل القراء وقبائل أخرى من دولة اللبان •

وبعد ذلك تحدث عنها ابن بطوطة قائلا : إن الناس يقيمون المنازل هنا من عظام الأسماك ويغطونها بجلود الجمال •

وقال « س • ب — هانز » إن الناس هنا يعيشون على الأسماك فقط » • ووجدنا بين الأطلال مقابر إسلامية حديثة ، لا يتعدى تاريخها مائتى عام ، ولم يكن لدى الطاقة اللازمة لفحص التحصينات الصخرية فى الجبل المطل على المدينة ، ولكن بمعاونة الصيادين قمت بذلك ، ووجدت أطلال مبان وأشجار تمر ، وسنط •

والدنيا لدى الكثير من الجغرافيين العرب هى عبارة عن كرة تطفو فوق سطح البحر ، نصفها تحت المـاء والباقى خارجه ، وهناك منطقتان ، إحداهما • مسكونة والأخرى مهجورة ، واذا كان هذا صحيحا فإن هذه المنطقة المعزولة تعد من المناطق الصحراوية عديمة الحياة •

وفى جنوب ووسط الجزيرة يوجد هناك الربع الخالى ، برماله الناعمة ، التى لا يمكن السير فيها ، وهى رمال الموت ، والتى تحتل تقريبا مساحة خمسة وعشرين ميلا مربعا ، فى جنوب وسط جزيرة العرب ، يحدها من الشرق جبال عمان ، ومن الجنوب جبال القراء وحضرموت ، ومن الغرب جبال اليمن والحجاز ، وشمالا الأجزاء الصخرية الممتدة على حـدود المملكة العربية السعودية ، وهناك نظام بديع للرى والصرف من خلال الجبال العالية ، وهناك أودية فسيحة كثيرة فى الربع الخالى ، ذات كتل كبيرة من الرمال •

ورغم أن سقوط المطر نادر هنا فإن هناك الكثبان الرملية ، ولهـا نظام خاص يخضع لاتجاهات وقوة وتنوع الرياح المحلية ، والجـافة الجنوبية من المنطقة الرملية تمثلها مجموعه كبيرة من الكثبان الرمليه ، متنوعه الاشكال ، وهى التى تجاور الصخور الضخمة ولا تتأثر بهـا ، وعلى البعد من ذلك شمالا توجد كثبان رملية أكبر حجما ، وتنحـدر ناحية الشمال ، والشمال الشرقى ، وتحمل الرياح القادمة من الجنوب رمال الأودية ، وتلقى بها بالقرب من الريف ، وبسبب الرياح العاتية التى تهب على هذه المناطق فقد تزحزحت الرمال الى الأجزاء الصخرية الحادة ، وكونت مناطق تعرف بالشقين ، ومصـدر هذه ليس معروفا ، ولكن يعتقد أنها تأتى من وراء الخليج ، وهناك منطقة الربع الخـالى الحافلة بالرمال ، واصطلاح الربع الخالى هـذا معروف جيدا لـدى الأجانب ، وقد تحدث عن هذه المنطقة كثيرون من المستكشفين مما يدل على مدى شهرتها لدى الأجانب ، ومن الصعب تحديد حدود الربع الخالى حيث الرمال الشاسعة وانعدام المـاء ، ونقص المعالم تقريبا ، وحياة الرحالة فى الربع الخالى غـير مستقرة ، وغير سعيدة بسبب الغارات ، والمياه التى تسبب الخلافات بسبب قلتها ، وكذلك بسبب الحـالة التى يعانيها البدو فى ترحالهم مع نسائهم وأطفالهم .

وذات مساء أعددت العدة لعمل محاولة لاختراق المنطقة الشمالية من الربع الخالى ، والتى كنت قد بدأتها من قبل على ساحل ظفار ، وقد كان لى هدفان :

الأول : أن أحدد بوضوح عين الماء فى خفصة التى زارها « ويلفريد » على ظهر الجمال عام ١٩٤٥ .

ثانيا : البحث عن المدينة المفقودة أبر .

وكان رفاقى فى الرحلة الشيخ حميد بن حامد والى ظفار ، وأيضا رفاقى الجيولوجيون ، وفى نحو الشمال مرورا بالأودية العلوية لجبال القراء فحصنا بعض التكوينات الصخرية ، وفى النقطة النهائية قبل الدخول فى الرمال الشاسعة تقع منطقة دوكة فوق مئات الأميال من الساحل ، ثم عبرنا وادى بين خاطر ، وسرنا عبر الجـانب الشرقى من الوادى الى أم الحياة كما يسميها البدو ، ثم أقمنا معسكرا فى وادى أريفى ، حيث أشجار السنط ، وعائلات البدو الفقيرة والحيوانات والجماد ، التى تتغذى على النباتات البرية ، والبدو يقيدون حياتهم فى نطاق الجبال والبنادق والثأر ، ثم سرنا شمـال الوادى ، وهناك فى منطقة قريبة أمضينا ليلة سعيدة ، وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث مع الوالى ، والذى يبلغ من العمر أربعة وستين عاما ، وهو رفيق صدوق من قبيلة بنى غافر •

وفى الصباح كان طريقنا من الشمال للشمال الشرقى ، ثم دخلنا بعد ذلك فى رمال متواصلة ، ثم حـدد الشيخ الطريق قائلا ، إننا فى خفصه ، على مسافة سبعين ميلا للداخل من الربع الخالى ، وقد كانت المنطقة المجاورة تقريبا من أحجار الكربونات ، وكانت عارية تماما وعديمة النبات إلا من بعض الأشجار التى تنمو على الكثبان الرملية القريبة ، وتقع عين المـاء داخل الكثبان الرملية تقريبا ، وللماء فى هـذه المنطقة اعتبار خاص بدرجة قصوى ، وفى الجزء الجنوبى من الربع الخـالى والمسمى بخفصه يقال إن عين المـاء قد حفرت عن طريق شهاب سقط وحفرها ، وليس من عمل النبى آدم عليه السـلام ، وهـذا الموضوع يمكن تفسيره •

ثم قمنا برحلة بطائرتنا « الداكوتا » لاستكشاف المنطقة ، وكنا على اتصال دائم بصلالة باللاسلكى ، حيث كان من الصعب تحديد منطقة خفصة بسهولة ودقة عن الخريطة •

وفى النهاية حددناها بـ ٨٩ ميلا شمال دورة و ٤٥ ميلا فى الشمال الغربى من مغشن ، على مسافة مائتين ميلا من صلالة على الساحل .
وكانت خفصة فى الكثبان الرملية ، ويسكنها بعض من قبيلة كثير ، يرعون اغنامهم ، ويحملون بنادقهم على اكتافهم ، وقد يكفيهم ماء الأمطار — الذى يسقط لمدة ثلاثة ساعات فى السنة وللعشب هناك أهمية كبيرة لهؤلاء الناس ، فهو الغذاء الوحيد لجمالهم ، وكما روى عن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنه قال ما معناه إن صحة الجمل من صحة صاحبه .

ومن عادات « بيت كثير » تفضيل إناث الجمال فى رحلاتهم الطويلة والحكمة العربية القائلة « إن الله خلق البدوى للجمل وخلق الجمل للبدوى » حقيقة ، ويمكن ملاحظتها بدقة ووضوح فى قبيلة « بيت كثير » والبدوى هنا يعتبر أن الجمل هبة من الله ، وهو قد يفضله على أسرته ، ومن عاداتهم أيضا أنهم لا يتزوجون فى شهر صفر ، ويقدم نصف المهر للأب ، والنصف الآخر يقسم بين إخوة العروس ، ويقوم الأب بالانفاق والاعداد للزفاف .

وودعنا الوالى فى دورة ، وعاد الى صلالة كى يقدم للسلطان تقريره ، وبعد راحة قصيرة ، قمنا بإعداد الفريق للبحث عن أبر « المدينة المفقودة » .

وكما تحكى القصة الأسطورية عن أبر ، أنها كانت مدينة مليئة بالقلاع ومليئة بالأغنياء ، وكان بها حصن من الفضة ملىء بالعملات ، وكانت المدينة تقع وسط الواحات الغنية فى المنطقة المعروفة الآن باسم الربع الخالى . وينتمى سكانها الى قبيلة « عاد » وكانت هذه الواحات تسمى بجبات « عاد » حتى أنزل الله غضبه عليهم للخطايا الكثيرة التى كانوا يقترفونها .

ولم تكن هذه هى المحاولة الأولى التى أقيم بها للبحث عن المدينة المجهولة ، ولكنى قمت بمحاولة سابقة فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٥٣ بدأتها من شيزور ، وهو المكان الوحيد الغنى بالمـاء فى تلك المنطقة ، وتختفى هذه العين وراء الأكوام الجيرية والصخرية التى تراكمت عليها ، وحتى عندما صعدنا فوق هذه الأكوام كان من الصعب علينا أن نرى المـاء ، ثم رحلنا بعد ذلك ، وقد أسرعنا عند رحيلنا بسبب العواصف الرملية التى هبت علينا ، ثم دخلنا ثانية فى المناطق الرملية العميقة ، وللحق ، فإنى أقول ، إنه من الصعب جدا القيام برحلة استكشافية جيولوجية فى تلك المناطق بالسيارة ، أو بالطائرة ، بسبب الرمال الناعمة العميقة التى تغطى الأرض ، والعواصف الرملية التى يمكن أن تسبب الكوارث • أما الحقيقة التى خرجت بها فهى ، أن الجمل يعتبر هـو الوسيلة الوحيدة بالنسبة للانسان فى هذه المناطق وعليها يعتمد فى حياته •

وفى الطريق أوقفنا مجموعة من « بيت كثير » لنستفسر منهم عما اذا كانوا يعرفون مدينة أبر ، فصاح أحدهم فى أذنى « الشيطان هـو الذى يعرف » وحدثنى مرشدى الشيخ مسلم عن الأطلال هنا ، وذكر أنه رافق من قبل الجيولوجى الشهير « ثيبسيجر » ولكنهم ضلوا الطريق هنا ، وصحراء العرب مفعمة بالقصص التى تتناول الذهب المدفون فيها ، ولكنها أضغاث احلام •

وفى شمال الوادى رأينا الكثبان الرملية على كل الجوانب ، رأينا مجموعة من الجبال الصخرية من الكتل الرملية ، وجلسنا لنتناول الغداء ، ثم أخذنا نتجول فى الشرق والجنوب من هذه الكثبان الرملية ، وفجأة

صاح رفيقى الجيولوجى « شارلى » من « كاليفورنيا » هاهى ذى الآثار • غير أنى أعتقد أنها آثار لقوافل كانت تمر من هذه المناطق الخالية منذ زمن ، وبعد رحلة شاقة اتخذت قرارى بالعودة الى صلالة ، بعـد أن أنهيت رحلتى للبحث عن أبر •

وبهذا انتهت قصتى مع عمان وشعبها ، وهى قصة حافلة بالمغامرات المتتالية : والتى تحتاج الى الكثير من الكتب لتسجيل أحداثها •

خـــاتمـــة

على أسوار البوابة الداخلية للمدينة القديمة سمهورام توجد نقوش كثيرة تشير الى ملك حضرموت ، ومدين ، وسبأ ، حيث كانت شئون الحكم تدار منها .

وتقع سبأ شمال جبال القراء ، على حدود ظفار ، ولذلك فقد كان هناك دليل حقيقى يربط مدينتنا المفقودة سمهورام فى ظفار بسبأ عاصمة مملكة حضرموت القديمة . والتى تقع فى الغرب على بعد خمسمائة ميل . وقد كتبت عام ١٩٥٥ أن سبأ هى اللغز الذى يحاول كل مكتشف يأتى لجنوب الجزيرة العربية أن يحله ، حيث إن الرمال هناك تغطى التماثيل القصور والكنوز المدفونة ، والتى تجعلها من أهم البقاع .

وقد تحدث بلينى عن وجود ثلاث ممالك قديمة وهى ميثان ، وقطبان ، وسبأ كما ذكر « سترابو » المملكة الرابعة وهو سبوتا ، وقد كان هناك ملك واحد هو الذى يحكم كل هذه الممالك ، وكانت مدنا مزدهرة ، تزينها تماثيل وقصور جميلة ، وكانت منازلها تشبه منازل مأرب .

وقد ذكر أحـــد المستكشفين الهولنديين عن حضرموت ما يأتى : « كانت سبأ مدينة هامة ، فقد كانت تضم قصر الملكة ، التى بدأت زيارتها منها الى الملك سليمان فى القدس ، ولهذا اكتسبت سبأ شهرتها ، ويمكن القول بأن هناك أنظمة للرى رفيعة المستوى عرفت فى تلك المنطقة « بسد مأرب » . بالاضافة الى موقعها الاستراتيجى ، كعاصمة لحضرموت . وكذلك تحدث عن أحـــواض الملح بها ، ثم سيطرتها على كل التجـــارة القادمة من غانا .

ثم كانت رحلتى التالية الى وادى حضرموت الذى ذكر عنه البروفيسور و • ف البريت فى حديث شخصى :

« إن وادى حضرموت هو المنطقة الأكثر جودة فى جنوب الجزيرة العربية كلها ، فهو أكثر اتساعا من أى واد آخر ، والماء فيه قريب من السطح أكثر من أى مكان آخر ، باستثناء بعض الواحات القليلة ، ولذلك كان من السهل على المقيمين فيه أن يزرعوا أجود المحاصيل فى التربة الطمودية الخصبة ، ولذا فمن المحتمل أن يكون هذا الجزء قد شغله السكان قبل أى جزء آخر •

وعند ظهور الجمل فى الألف الثانية قبل الميلاد كانت هناك تجارة مزدهرة للغاية ، وأقدم عاصمة عرفناها هى سبأ ، وخاصة بالنسبة للنقوش والرسوم التى يعود تاريخها الى ما بعد الاستيطان فى الوادى •

وقد لاحظت عام ١٩٥٠ مدى اتساع الوادى ، وهو نادرا ، ما يشبه واديا آخر ، وعند دخولنا للحافة الشرقية من رملة سبأ وجدنا سهلا رمليا متسعا ، يمتد بالقرب من مأرب فى اليمن غربا لمسافة مائتى ميل الى بداية وادى حضرموت شرقا ، ومن تمنا فى ميهان شمالا الى النقطة القوية التى تنحدر باتجاه الربع الخالى ، والآن نعبر للمرة الثانية تلك الرمال الصعبة بسرعة خمسين ميلا فى الساعة • ثم وصلنا الى بعض الأطلال فى تلك المنطقة حيث توقفنا للبحث •

ويمكن القول بأن عمل الجيولوجى هنا من أصعب الأعمال ، فهناك من لا يتعاون معنا فى عملنا ولكن فى كل مكان كنا نذهب إليه كان هناك من يفهمنا ، ويفهم هدفنا من البحث ، والسير فى تلك المناطق المجهولة ، وكان هناك أيضا من لا يفهمنا ، وفى كثير من المناطق كان الشيوخ المصاحبون لنا يمنعوننى من دخولها ، ولكننى كنت أصر على الدخول لمعرفة خبايا

تلك المناطق ، وكانت البنادق تصوب فى وجوهنا فى مناطق كثيرة ، وتمضى ساعات فى الاقناع البطىء ومحاولة تصحيح الموقف ، ولكن فى النهاية يمكن القول بأن العربى رغم شكه أول الأمر وعدم تصديقه لما نقول فإنه لا يصوب سلاحه الى مسالم أتى إليه بنفسه بغير ما نية فى الأذى • وعندما يتأكد من غرضنا ينهال الكرم والتعاون ، ولكن ربما كان السبب فى صعوبة التفاهم للوهلة الأولى هو طبيعة الحياة الشاقة القاسية للبدوى فى الصحراء •

وعند عودتنا مارين بالمدينة تحرينا عن نقوش رائعة فوق أحد المساجد المحلية وعلمنا أن تلك النقوش تخص « يادا البين » ملك حضرموت ، وربما كان هو الملك الذى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد •

ثم قمنا بعد ذلك بزيارة الملاحات الشهيرة فى سبأ التى تشابه ملاحات أبادين فى بيجان وإن كانت أصغر حجما ، وهناك وجدت بعض العملات القديمة التى يرجع تاريخها الى حقب بعيدة ، وفى طريق العودة مرت بخاطرى تلك الذكريات الحافلة ، والأحداث التى امتلأت بها رحلتى الاستكشافية ، والتى يمكن أن تثير الطريق لأى جيولوجى مغامر يحاول القيام برحلة استكشافية لمنطقة الجزيرة العربية •

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : الجبل الأخضر ومسقط	٥
الفصل الثانى : الدين فى عمان	٢٠
الفصل الثالث : صحار	٢٨
الفصل الرابع : مقابر المدينة	٤١
الفصل الخامس : إرادة الله	٤٨
الفصل السادس : عمال صحار	٦٠
الفصل السابع : أحوال العرب	٧٣
الفصل الثامن : الرمال الحمراء	٧٧
الفصل التاسع : البحث والتنقيب فى صحار	٨٢
الفصل العاشر : الجزيرة العربية وغناها بالتوابل	٨٧
الفصل الحادى عشر : زنوج ظفار	٩١
خاتمة	١٠٠

353
Bibliotheca Alexandrina
0248998